

جامعة الجزائر -2-

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم الفلسفة

أنطولوجيا اللغة عند هيدغر

هولدرلين نموذجاً

مذكرة لنيل درجة الماجستير في الفلسفة

إشراف :

أ. د. حياة بن بوزيد

إعداد الطالبة :

الخربة فتيحة

السنة الجامعية : 2014/2013

مقدمة

مقدمة:

لقد أرسى الفكر الغربي منذ فجره الأوّل قواعد الحوار و السجالات الفكرية التي كان لها باعطويل في تطوير المعارف وتوسيع الأفق العلمي للإنسان، لذلك ليس من الغريب إذ استوقفنا موقف من مواقف مفكري العالم الغربي، ولعل الوقفة التي تعد فتحا من فتوحات الفكر المعاصر هي تلك التي فرضها مارتن هيدغر على المسار الفلسفي من خلال مقارباته الجمالية و الأنطولوجية للغة والشعر و التي بناها على أساس إعادة النظر في مفهوم الحقيقة التي أصبحت تعني في تفكيره الكشف (أليثيا) وليس المطابقة، فهو يفترض أن الحقيقة ليست معادلات رياضية أو نسبا إحصائية فقط الحقيقة انفتاح وفن.

وفي هذا العصر الذي طغت فيه لغة التقنية وانسد فيه الأفق الأنطولوجي وضاع الموجود الجزئي في متاهات الأسئلة، جاء هيدغر بنظرة وجودية مفارقة من حيث اهتمامه بالموجود في كليته وبمسألة الإقامة على الأرض في عصر تقوم ماهيته على العقل الحسابي. فلم يهتم هيدغر بالميتافيزيقا بالمعنى الأفلاطوني أو حتى بالمعنى الأرسطي (وهما النموذجان الأبرز في المسار الميتافيزيقي) لأن هذه غيرها تاريخ الفكر والإقامة في الأرض.

إن سلطة القول الميتافيزيقي التي حاصرت الفكر لحقبة طويلة غيبت الوجود الحقيقي فأضحى عالمنا مشدودا إلى أزمة كونية وبات الرهان على الفلسفة اليوم أمر مطلوبا.

ولعل استدعاء هيدغر لمسألة الوجود كان ضروريا لأنه الأكثر ارتباطا بمشكلات الإنسان والأقدر فكرا في المرافعة على سؤال الوجود، كما أن مساءلة هيدغر في هذا المقام كانت مهمة جدا في غرس محبة السؤال.

إن الأسئلة التي يطرحها هيدغر لا تخص حقبة أو فئة معينة من البشر وإنما هي أسئلة كونية تنتبه إلى خطر سقوط سؤال الوجود في النسيان.

إنه لمن المشروع إن نستدعي هيدغر لأنه ربط.فلسفته بشبكة مفاهيمية لم ينازعه في نحتها أحد فجعل اللغة مقاما رفيعا في الكشف عن الوجود، فصارت موضوع نظر ومحور انشغال في طرح مسألة هذا الوجود.

لقد جعل من اللغة الإغريقية والألمانية جسرا للعبور للوجود ولعل هذا يكشف عن خلل في عمل الذي اعتمد أساسا على النصوص المترجمة إلى الفرنسية، لذلك عجزت في لحظات كثيرة من البحث عن الوصول إلى عمق المفاهيم الهيدغرية والتي نحتت باللغة الألمانية وعرفت من بنيتها وامتزجت بالمفاهيم الخاصة بهذه اللغة لهذا قد يشوب عملي بعض القصور وقد تكتفه بعض النقائص التي مردها جهلي بالألمانية، ولا غنى عن النص الأصلي في موطنه الحقيقي، ولن يغني أبدا عنه النص المنقول، وإن بدت ترجمتي في بعض النصوص متعثرة وغير وفية للأصل فهي لا تخلو من حسن النوايا محاولة بلوغ الهدف العلمي.

ما أشق التفكير مع هيدغر، وما أصعب أن تغوص في نصوصه التي تشبه القلعة الموصدة التي لا تحل أبوابها إلا للنخبة.

ورغم ذلك فأكثر ما يدفعنا لهذا التفكير هو اقترابه من المنبع الإغريقي وخلخلته لفكر زاد تاريخه عن 2000 سنة، محاولا التملص من قدرية الفكر الغربي ومتوجها نحو فكر جديد وأصيل، ينشط خارج النظام، ويكسر طوق الإجماع والنمطية.وعلى هذا الأساس لا بد للفلسفة أن تجدد في خطابها الذي طبع برموز وشفراتباتت لا تثمر بالجديد.

اذن ليس باليسير التطرق لفكر هذا الفيلسوف دون الاصطدام بالإرث الفكري ودون التعثر في مختلف مطبات الميتافيزيقا.لذلك كان من الضروري أن أوجه عملي نحو نقطة معينة في هذا الفكر.ووقع اختياري على مسألة الوجود و اللغة لما لها من أهمية في انطولوجيا هيدغر وسأحاول في هذا العمل إظهار دور اللغة في الفكر الهيدغري باعتبارها مسكنا للوجود لأنها فكرة لا طالما أثارت و لا زالت تثير الكثير من التساؤلات وسيكون هذا وفقا للإشكالية التالية:

كيف يمكننا فهم علاقة اللغة بالوجود عند هيدغر من خلال الكشف عن ماهية
الشعر (شعر هولدرلين نموذجاً)؟

و تتفرع إشكالية البحث هذه إلى تساؤلات مختلفة. و القصد من هذا التفرع توجيه
البحث نحو نقاط مختلفة ومعينة و من هذه التساؤلات ما يلي:

ما علاقة اللغة بالوجود؟ أو ما موقع اللغة من الوجود؟ وكيف يمكن اعتبار اللغة
مسكن الوجود؟ و كيف تمكن هيدغر من اكتشاف الاستشراق في شعر هولدرلين والذي
يكشف الوجود المحتجب؟

و إذا كان الشعر هو إضاءة الكينونة فكيف يمكن الربط بين الشعر و الوجود؟ وكيف
يثير الشعر أسئلة الوجود التي يعيد من خلالها التوتر الحيوي للوجود الناطق؟ وكيف يعبر
نحو الاستتارة المبددة للعممة؟

في بداية الإحاطة أو محاولة الإحاطة بهذه التساؤلات رأيت أنه من الضروري التحدث
عن حياة هيدغر وكرونولوجيا أعماله وذلك بالتطرق إلى وضع الفيلسوف في إطاره الفلسفي
و التاريخي. وسأشير خصوصاً إلى مختلف التأثيرات.

صقلت فكره انطلاقاً من الفكر اللاهوت ووصولاً إلى أستاذه هوسرل ورجوعاً أيضاً إلى
الفكر الإغريقي قبل السقراطي فلقد اغترف هيدغر من عدة منابع لينتج فكراً أصيلاً وكل هذا
سيكون من خلال المبحث الأول من الفصل الأول.

أما المبحث الثاني فسأخصصه للحديث عن محاولات هيدغر لنقد العقل اللغوي أي
تصفية اللغة من شوائب الميتافيزيقا وتقويضها لاسترجاع هيبة اللغة.

وما كان ذلك ليكون دون التقويض الفينمنولوجي للتراث الميتافيزيقي وذلك بنقده الذين
سيطروا على الفكر باتخاذهم سلطة العقل والقول الميتافيزيقي ذريعة لذلك.

أما في الفصل الثاني فسنطرح من خلالها أهم الأفكار التي تتسج العلاقة بين الوجود
واللغة والشعر. مثل الحديث عن البعد الوجودي للغة وخصائص اللغة الشعرية باعتبارها
معبراً للوجود، فالوجود عند هيدغر لا ينفصل عن اللغة و شعرنة الوجود هي هدفه، وكان

نموذجه في ذلك فريديرتشهولد رلين الذي خصه هيدغر بمقاربات شعرية ضم فيها أهم قصائده التي يعبر عن الزمانية وماهية الشعر.

ولا يمكن ذكر هولدرلين دون الإشارة إلى علاقة الجوار بين الفكر والشعر التي تلخص خصائص هذا الجوار وإسقاطاته على الوجود الإنساني.

واتضح هذا جليا في مقارنة هيدغر للشعر الهولدرليني أين أوضح دور الشعراء في إعادة إظهار الوجود المخفي والمنسي، وهذا من خلال استعراض بعض قصائد هولدرلين. وقد أظهر الشعر الهولدرليني بناء على تحليل هيدغر مقام الزمانية ومفهومها الوجودي وارتباطها بماهية الشعر.

أما الفصل الثالث فسيحوي عرضا تحليليا للركائز التي بنى عليها هيدغر مفهوم اللغة من خلال قصائد هولدرلين، وفيها يجسد هيدغر مدى ارتباط الأرض الأم كمنبع ونقطة البدء في إثارة الوجود وذلك باتخاذ خط هولدرلين الإبداعي كنموذج لذلك، فمثلا مرحلة الراين التي مثلت لشعار الحنين إلى أرض مسقط الرأس ترسم معالم الكشف الأنطولوجي عن طريق نسيان صراع الآلهة والبشر والوصول إلى حل هذا الخلاف في قصائد يوم العيد.

و من خلال هذا ستكشف لنا رؤية جديدة لمهمة اللغة التي تأخذ طابع الكشف والإظهار بدل نمطية التواصل وفي هذا الصدد يجسد هيدغر تصحيح الوضع الأنطولوجي الذي كان ميتافيزيقيا في زمنه والاعتماد على فكرة اعتبار اللغة هي مسكن الوجود لما تملكه من مقومات ومقام يؤهلها لذلك.

اذن مجمل عملنا هو محاولة لفهم مكانة اللغة عند هيدغر خصوصا موقفه الأصيل والمفارق منها، هذا الموقف الذي يهدف إلى الكشف عن هذه الأرض الموعودة أو أرض التوافق التي تتحقق فيها الكينونة الكاملة و الحقيقية. هو أيضا محاولة لفهم العلاقة التي تربط اللغة بالشعر والعلاقة التي تربط الإبداع الشعري بالذكرى. هذه الذكرى التي

لا تتحقق إلا بالصمت الذي يعبر عن قوة الكلمة. فهو شرط التجرد الروحي ويرتبط بالقدرة على الإنصات كي تدخل في الحوار.

الفصل الأول

نقد العقل اللغوي

برحيل هيدغر سنة 1976 تكثف الفكر الفلسفي في أطروحاته وتشعبت تساؤلاته، واهتزت الحركات الفكرية وانتفضت المذاهب فلقد رحلت الزوبعة الفكرية تاركة تساؤلات كثيرة وقاتحة المجال أمام رؤى جديدة أعادت رسم خارطة الفكر وغيرت القوالب الكلاسيكية الموروثة، فهيدغر حسب الكثير من النقاد فيلسوف المنعطفات الحاسمة فكل من عاصره وتتلذذ على يده أو صادقه وجد نفسه واقعا في رهان الاشتباك مع فكره.

إذن فليس من السهولة سبر أغوار فيلسوف من مقام هيدغر وليس من اليسير الخوض في المتاهات فكر غير اعتيادي لا صلة له بالمألوف إلا من بعيد ولكن المحاولة تبقى ممكنة وإن لم تكن مضمونة النتائج.

فهيدغر يعتبر من الذين انتقدوا الفلسفة الغربية وقوضوا أسسها وجعلوا تجاوزها خطوة أساسية لفتح طريق جديد للميتافيزيقا. لقد أسس لفهم جديد خصوصا فيما يتعلق بالنظرية الوجودية بالاعتماد على التأويل الفينومينولوجي الذي بدوره عرف تجديدا على يديه. وكان ذلك استشعارا لخطر النسيان الذي بات يحجب الوجود، هذا النسيان الذي دفع هيدغر إلى التساؤل عن الوجود والزمان فيتساءل " هل يمكن رؤيته، إننا نرى موجودا مثل هذه القطعة من الطباشير لكن، هل نحن نرى الوجود؟ كما نرى اللون و الضوء و الظلمة؟ أم إننا نسمع و نشم و نتذوق و نلمس الوجود؟ (...). أين الوجود؟ وفي أي شكل يكمن؟ ¹ ولعل ما يميز هيدغر هو محاولة بناء نموذج أصيل وهو اعتبارا اللغة أساس الوجود وهو الطرح الذي ميزه عن سابقه ومعاصريه وهو الذي يجعله مستقلا وغير مألوف وكما يقول أوتو وبوغلر "إن فكر هيدغر يبدو دخيلا وخارجا عن عصرنا"².

¹Pöggler La pensée de Heidegger Aubier Montagne Paris 1967 p18.

²-Heidegger Introduction a la métaphysique trad. par Gilbert Khan Gallimard 2008p45

لقد دأب هيدغر على تجريب كل الدروب الموصدة وعلى استكشاف تضاريس الميتافيزيقا: "لا ينبغي أن نسلك ثانيا هيدغر ونتبعه بالسؤال الذي طرحه، وطرحه وحده وذلك من أجل النفاذ إلى الفكر الصارم والوقوف بلا تحفظ إلى جانب التأويل"¹.

إن تأثير هيدغر لا يمكن إنكاره سيما عندما يتعلق الأمر بمختلف النظريات الفلسفية، فلقد استوقف هيدغر جل المفكرين وجردهم من كل انجازاتهم، فلا يمكن لأي مفكر معاصر أن يتجاهل خطر الفكر الهيدغري أو على الأقل يستوقفه: "مارس هيدغر على أتباعه مفعولا سحريا جرد معظم الفلاسفة والشعراء من انجازاتهم"².

إن التفكير الحقيقي عند هيدغر ليس تساؤلا بقدر ما هو إنصات لما يثيره من معاني، وبما أن التفكير الأساسي عنده يجب أن ينهل من الماضي، فإن ذلك لن يأتي إلا بإيقاظ اللغة الأصلية كسمة للوجود الحقيقي الذي لا يمكن فهمه ومساءلته إلا عن طريق اللغة التي تعتبر بيت الوجود، ولكي نفهم هذه العبارة "اللغة هي بيت الوجود" علينا طرح عدة تساؤلات. بعضها ادر جناهسلفا ضمن تفرعات الإشكالية في المقدمة :

كيف يمكن اعتبار اللغة هي سبب الدازاين وكيف أمكن هيدغر الوصول إلى اعتبار اللغة هي الاستقرار وأي نمط لغوي كفيل بالكشف عن ماهية الإنسان؟ وإذا أمكن اعتبار الشعر هو إضاءة لكيونتنا فكيف يمكن الربط بين الشعر والوجود؟ وكيف يمكن اعتبار اللغة هي انتشار للفكر عن عتمة الميتافيزيقا؟ والعودة إلى منابع الفكر الأصيل؟ ما الذي يجعل اللغة عند هيدغر هي التعبير عن الكينونة وإذا كان ذلك ممكنا فأبي العناصر اللغوية هي أدواتها؟

¹- Derrida De la grammatologie, Minuit, Paris, 1967, p321.

²- George Steiner, Martin Heidegger, Champs essais Flammarion, 2008, p23.

المبحث الأول: منابع الفكر الهيدغري.

الاطلاع على فكر هيدغر واستحضار فلسفته التقويضية والتي تعبر عن الشتات والوحدة في آن واحد، يستدعي معرفة المناهل التي روت فكره، وإن كان هذا الأخير معاصرا فيبدو أن جذوره فلسفته تمتد إلى العصر اليوناني القديم حيث يتجلى الانطباع الأول التي سينحت لا محالة في فكر هيدغر.

يعتبر هيدغر أن الفكر اليوناني هو أعلى مؤشر للوجود ويؤكد أيضا على أنه المنعطف الحاسم الذي شهد ولادة الإنسان الأصيل وأكثر ما شد هيدغر للمرحلة الإغريقية هي تلك الدهشة وذلك الاصطدام الأصيل بكل ما هو "طبيعة"، فكان قدامى الإغريق بمثابة الملهم في هذا المجال، وكانت هي المرحلة الإغريقية مرحلة مفصلية يرى فيها هيدغر ضرورة للاستحضار والاستنكار.

أ. التراث اليوناني القديم:

إن الفكر الإنساني متعدد المشارب والمانع ولكن ما الذي جعل هيدغر يلتفت إلى هذه الحقبة بالذات وما الذي جعله يستوحي أفكاره المميزة منها؟ أي ميزة تطبع هذا الفكر حتى يغدو نبراسا لفيلسوف معاصر بحجم هيدغر؟ إن الفكر المعاصر ما هو في الحقيقة إلا شعلة ضئيلة من القبس المعرفي اليوناني القديم الذي لا يزال يغذي منابع الفكر المعاصر، فإن كان يظهر في أول انتاجاته تفكيراً ينبع عن عقل بدائي طفولي لا يكاد ينفصل عن الميثولوجيا التي جعلت من الخرافة والأسطورة أهم أداة تعتبر مهمة خصوصا إذا ما ذكرنا الإلياذة والأوديسيا.

ولعل أبرز ما أثار انتباه هيدغر هو أنكسماندريسالذي عاش بين القرنين السابع والسادس ق.موالذي يعد أول من صاغ فكرة الوجود في نظرية أصيلة أسماها هيدغر "كلمة

أنكسماندريس". وهو أول من دون فلسفة كتابيا لكن ما وصل إلينا لا يتعدى بعض النصوص، أبداع في علوم عديدة كالفلك والهندسة والجغرافيا واعتقد أن مبدأ أوصل الأشياء هو اللانهائي، فهو يرى أن البداية كانت لا محدودة ولا نهائية لا تخضع للتقادم أو التلاشي والتي حوت عناصر أولية اشتق منها كل شيء نراه.

ولقد تكهن بتعددية الأكوان حيث افترض أن العوالم تظهر وتختفي لوقت من الزمن وأن بعضها يولد حين ينتهي الآخر وأن هذه الحركة أبدية وهذا عكس ما اعتقده أفلاطون وأرسطو الذين افترضوا وجود عالم واحد فقط. ولقد خصص هيدغر لهذا الفيلسوف فصلا كاملا في كتاب "الطرق الموصدة" « les chemins qui nemèmentnulle part »

ويجدر بنا الذكرأنهذا الرجوع إلى فجر الفلسفة اليونانية اعتبره هيدغر انطلاقة وعودة إلى فجر الميتافيزيقا حيث تتكشف الرؤيا الأصلية والتي تؤسس لهذا الفكر الميتافيزيقي، وتعيد النظر في كل ما يبني عليه، إذ أن الداعي الحقيقي للتفكير هو تطرق إلى ما لم نفكر فيه بعد. فهذه القراءة الجديدة للتراث اليوناني هي مدخل إلى استعادة حقيقة الوجود خصوصا بالرجوع إلى مرحلة برميندس وهيراقليطس والتي نجد فيها ما يحتاجه الفكر الغربي للخروج من التعثر الميتافيزيقي،¹ فلن يتمكن الغرب من استعادة اللامفكر فيه إلا إذا فكرنا كما فكر الإغريق بالسؤال وما يهدف إليه فيفكر برميندس " في "اللوعوس تفكيره في الوجود"²، فهيدغر يعتقد أن الفلسفة قبل السقراطية منحنتا بعضا من رموزها دون أن تفتح لنا كل دفاترها فلمنعثر إلا على بعض الشذرات، ولم نكتشف كلتجارب برميندس وهيراقليطسبوصفهما صاحبي رسالة تكمن في حراسة حقيقة الوجود ورعايته هذا الوجود الذي بقي حبيس الفيزياء في الميتافيزيقا الغربية.

¹ نفس المصدر السابق ص132

² - Heidegger, Introduction à la métaphysique, trad. par Gilbert Khan Gallimard, 2008, p.134

إن الفكر الإغريقي الأصيل نداء يوقظ الفكر ويعيده إلى الأصل حيث أن أعمق ما دفن في المعابد الإغريقية هو المفكر الأصيل

ولعل أبرز ما لفت نظر هيدغر عند اطلاعه على الفلسفة الإغريقية هو نسيان الميتافيزيقي الذي مارسه الغرب منذ أفلاطون عندما اعتبر أن الفيزيس Physis واللوغوس LOGOS مفهومين كليان متقابلان، رغم أن برميندس قد أستأثر بنظر أصيلة مغايرة وهي اعتبار اللوغوس "تفكير في الوجود"¹.

ولأن اللوغوس والفيزيس لا يختلفان تقطن هيدغر إلى هذا التماثل وأقر أن نيتشه كان الأقرب من غيره إلى الفكر الشذري وإلى لغة متحررة عن المنطق كما لم يفصل أبداً اللوغوس عن الفكر. لكن الترجمة من اللغة الإغريقية إلى اللغات الرومانية و عدم أمانتها هو الذي حجب هذا التماثل.

يعتبر هيدغر برميندس وهيراقليطس أهم مفكري الفلسفة الإغريقية إذ لم يكن برميندس وهيراقليطس من الفلاسفة بل كانا مفكرين أصليين إذ كانا منسجمين مع كلمة (اللوغوس) أي الواحد في الكل.

فها هو برميند سيخترق النسيان الميتافيزيقي، و يجعل اللوغوس يحرص على الانكشاف، فيصبح الفكر والوجود لديه شيئاً واحداً. ولهذا نجد هيدغر يوضح أن برميندس أسس فكره على مفهومين مختلفين هما معنى الإنصات إلى الوجود، و الانكشاف التلقائي، وهذا لا يمنعه من وحدة الخطاب. كما أن الحوار مع برميندس لا يمكن أن ينتهي لأن كثيراً من أفكاره لا تزال غامضة، ولأن فكره لا يزال غير منكشف ولا محور وهذا دليل اتساع فكره.

¹- Heidegger, Introduction a la métaphysique, trad.Gilbert Khan.,collection TEL.Gallimard, Paris, 1967, p132.

أما هيراقليطس فيمائل برميندسفي هذا المنحى، حيث أنهما فهما مسألة الوجود فهما عميقا، وكانا السبب الأول في استجواب هيدغر للتراث الغربي و في قوله عن أهمية فجر الفلسفة أو الأصل هي بعث بداية جديدة والتفكير في مصير آخر للوجود.

يضيف هيدغر "أن هيراقليطس عرف بالغامض أو المظلم L'obscur ولكنه في حقيقة الأمر هو الوضوح بعينه لأنه يضيء لدخول الفكر"¹. ولا يتباعدان كثيرا في وجهة نظرهما في مسألة الأصل هذا الأصل هو ذات أصل عالم الإغريق الذي يحدده برميندس و هيراقليطس معا والذي يشرح العلاقة القائمة بين (الايثيا) و(الفيزيس).

إن عظمة الفكر ما قبل السقراطي يتمثل في جعل الوجود والفكر متماثلان، ولكن بصورة تلقائية ولا يمكن اعتبار أصحاب هذا الفكر أقل قيمة من أفلاطون وأرسطو فأضاءة هيراقليطس وبرميندس مثلا كانت مطلبا أساسيا حسب هيدغر احتاجته الميتافيزيقا الغربية، ومع بروز فكر سقراط وتلميذه أفلاطون عرف الفكر الإغريقي منعرجا جديدا، يتمثل في الابتعاد عن المسائل الميتافيزيقية أي كل ما يتعلق بالوجود والانتفات إلى الإنسان وامتداده الواقعي وتجلي ذلك في تطوير كثير من العلوم، كما أن أفلاطون انتزع الصبغة الوجودية للفلسفة واعتبر الميثولوجيا غير قادرة على خدمة الفكر الإنساني، ولعل هذا كان أكبر جرم قام بهأفلاطون حسب هيدغر، لقد كان السبب في تكريس نسيان الوجود "إن تاريخ الفلسفة منذ أفلاطون تحول إلى ميتافيزيقا فأصبح كله أفلاطونيا"².

– Heidegger, Essais et conférences, trad. par A, Préau Gallimard 2010, p.312.

²- Heidegger: L'époque des conceptions du monde, IN Chemins qui ne mènent nulle part, p134.

وإذا كان سقراط قد اهتم بالجانب الأخلاقي، ورأى ضرورة إثبات بعض الحقائق التي أسماها بالماهيات كالفضيلة والخير والعدالة فإن الوجود لم يعد قائماً في ذاته: "إن الوجود عند سقراط ارتبط بالمعاني والماهيات"¹.

كما إن الانطلاق من أنطولوجيا تقليدية مثل الانطولوجيا الأرسطية يحجب عنا فهم الوجود الحقيقي الذي هو خاص بالفرد الإنساني، لذلك اعتبرهيدغر الفكر الإغريقي قبل السقراطي أعلى مؤثر للوجود ومنه أسس لفكره المتميز.

ب. التراث الغربي الحديث والمعاصر:

إذا كان ديكرت قد هيا شروط " اكتمال الفلسفة الغربية"²، ووفر ضمانات النقد. والتأسيس فان كانط قد أعاد النظر في الميتافيزيقا وكان أول من شرع بطرح السؤال الدائر حول إمكان أو عدم إمكان الميتافيزيقا محاولاً توضيح مبادئ و حدود العقل الخالص في وحدته "يهدف النقد الايجابي إلى تبيان مبادئ العقل الخالص في وحدته الداخلية من حيث هي نسق أو نظام"² و قد يكون الطرح الكانطي الدائر حول مشروعية الميتافيزيقا من الدوافع شجعت هيدغر على مناقشة موضوع الميتافيزيقا وتأرجح موضوعها بين دراسة الوجود و دراسة الموجود.

لقد كان كانط يلح على أن كل سؤال حول الوجود يحتاج إلى أرضية ميتافيزيقية تصح مساره وتدله على الاتجاه الصحيح. فيكون بذلك قد فتح الباب أمام إمكانية استعادة الميتافيزيقا و توفير الشروط العلمية لتجاوزها (في طابعها الدوغماتي) على أسس مشروعة. ولقد اعتبر هيدغر الغموض الذي يكتنف موقف كانط من الميتافيزيقا هو أن هذا

¹ -- صفاء عبد السلام جعفر: الوجود الحقيقي عند مارتن هيدغر، دار المعارف الإسكندرية، ط2000، ص28

² -Heidegger, Qu'est-ce une chose chose ? trad ; J.Reboul et J.Taminaux, Gallimard, Paris 1971.p134.

3-Voir Kant. Critique de la raison pure. Trad. trem et picaud.puf.Paris.1968.p41.

الأخير لم يقف عند الاختلاف المنهجي بين الميتافيزيقا والانتروبولوجيا فماهية الإنسان الانتروبولوجية ليست هي ماهيتها الميتافيزيقية.

بالإضافة إللكانط. اعتبر هيدغر هيجل الفيلسوف الإغريقي الأخير. وهذا لا يعني أنه لا يختلف معه في فلسفة الوجود، ولكنه يراه صاحب الفضل في التبشير بفجر فلسفة الوجود لحظة مغيبها، وهذا ما يدفعنا إلى استكشاف ما سكنت عنه الفلسفة مع الإغريق.

فهيجل في رسمه للمنحى الجدلي للفلسفة أحدث رجة غير مسبوقة ربطت الإغريق بالفهم العميق للوجود، ولقد فتحت له هذه الفلسفة مفاهيم وإشكاليات عديدة.

ورغم الأثر الكبير الذي تركه هيجل في أعمال هيدغر، إلا أن هذا الأخير لم يتبنى الموقف الهيجلي الخاص بتقدم التاريخ وحركته نحو التعيين والامتلاء، فالرجوع إلى الوراء ليس العودة إلى القدماء لإثبات صحة خطابهم. فهيدغر لا يقدر الأصل و إنما الفلسفة التي لا تتقطع عن التكرار والابتداء. وإذا كان هيجل قد رأى الميتافيزيقا بمنظور مغاير لسابقه "فإن نيتشه هو من أنهى الميتافيزيقا من خارج الدائرة الهيجلية"¹، فقد حرص على التفكير في الزمان والميتافيزيقا الذي نسجته منظومة القيم الغربية، ودعا إلى عدم الوثوق بفكر قديم لا يقسم إلا بتقديس المثل العليا. واعتبر هيدغر العدمية التي أسس لها نيتشه بمثابة اكتمال البنية¹.

- الميتافيزيقا الغربية. فكان لهذا الفكر الأصيل أثرا على هيدغر الذي أكمل مسيرة نيتشه. ولكن وفق اتجاه مختلف رغم نقاط التقاطع التي تجمعهما. لذلك يؤكد هيدغر في أكثر من موقع إن نيتشه لا يمثل آخر ميتافيزيقي وحسب بل إنه أخرمفكر في الغرب "لأنه فهم معنى البدء الأعظم للموجود الإغريقي الذي لم يضاويه في فهمه إلا هولدرلين"².

1-Heidegger ;Nietszsche ;trqd ;p.Klowski ;Gallimard ;Paris ;1971.p14

²Heidegger. Introduction a la m métaphysique .p135

أما فلسفة هوسرل فلقد كان لها عظيم الأثر على في فكر هيدغر سيما يده. فظهرت بصماته الفلسفية جلية في صياغة التأمّلات الفكرية لهيدغر. ولعل ما يدل على ذلك هو إهداء هذا الأخير كتابه العمدة "الكينونة والزمان" والذي انتهى من تأليفه عام 1927 إلى أستاذه هوسرل، وأبرز ما طبع هيدغر هو تبنيه للمذهب الظاهري، حيث بناء عليه شق هيدغر لنفسه خطأ فكريا جديدا اتفق فيه مع هوسرل في المنطلق واختلف معه في النتائج. وإذا تحدثنا عن الظاهرية أو الفينومينولوجيا فإننا يجب أن نستعرض رأي هوسرل فيها فهو يرى أن البحث عن الماهية الخالصة ويستخدم في ذلك الرد الفينومينولوجي التراستدالي الذي يتجاوز الوعي المباشر وخبراته الواقعية إلى الشعور الخالص المطلق الذي نجد فيه الأصول الأولية لكل الظواهر. وهنا اختلف هيدغر مع أستاذه حول معنى الترندستال، فعرفه هيدغر على أنه الوجود ولكن الوجود المختلف عن وجود الأشياء، أي الوجود الذي يستبق إمكانياته في صورة مشروع فيتجاوز بذلك العالم المعطى ولكنه يخرج عن ذاته إلى العالم ليوجد فيه (الوجود-في-العالم) و ليس لكي يعرفه أو يعيه. وفي كتابه "الوجود والزمان" أفرد هيدغر للإنسان هوية "الوجود- هنا" « Dasein » ومع أنه كان على غرار معلمه هوسرل يتبصر في ماهية ظواهر الاختبارات الإنسانية الأصلية، إلا أنه لم يكن يرمي إلى فصل هذه الظواهر عن اقترانها بأحوال العالم والتاريخ، بخلاف مسعى هوسرل الذي اهتم باستطلاع ماهية هذه الظواهر في ارتباطها الحتمي بقرائن العالم الذي يكتنفها، ولعل ما يدل على ذلك قول هيدغر إن الإنسان كائن ينتمي إلى العالم أو كائن المصاحبة الإنسانية (Mi-Sein).

كان هدف هوسرل هو أن يبلغ بالفلسفة إلى مرحلة إدراك الأشياء في حقيقة ذاتها، ولذلك سعى في كتاباته إلى إصلاح الفكر الفلسفي حتى يظل أشد تيقظا للظواهر التي تستدعي الوعي الإنساني، والظواهر هي الأشياء عينها على حسب ما تتجلى للذين يتعلمون القصيدة في تدبر معاني هذه الظواهر، فالتفكير الفلسفي لا يرمي إلى إدراك

مضامين المادة الخارجية إدراكا مباشرا بل يدرك الاختبارات الذاتية التي يعي بها وجود هذه المضامين والتي من خلالها تظهر هذه في صورة الظواهر المتصلة بوعينا الداخلي. و قد يختلف كل هذا عن تصور هيدغر للعالم وظواهره. ولكن مع ذلك يظل تأثيرهوسرل عليه هو الأكبر لأنه هو من حرك فيه هذه الرجة الفكرية التي نعرفها.

ونحن نتحدث عن المرجعيات وجذور فلسفة هيدغر لا يجدر بنا إغفال المرجعية الدينية أو اللاهوتية. فقد كان هيدغر كاثوليكيًا في الأصل. ترعرع في أسرة محافظة أخذ منها ومن مدرسته الدينية ركائز الديانة المسيحية بمذاهبها المختلفة بما فيها المذهب البروتستانتي. وهذا يظهر جليا في أعماله وان لم تحمل معنا لاهوتيا صرفا. كل هذه المرجعيات الفكرية التي ذكرناها كانت روافد أضافت الكثير لفكر هيدغر أو ساهمت في رسم الخطوط المهمة لهذا الفكر. وكان هذا انطلاقا من الإغريق. خاصة الفلاسفة ما قبل-سقراط. ومرورا بمنابع الفلسفة الحديثة مثل ديكارت وكانط وفي مرحلة لاحقة هيجل و نيتشه، ووصولاً إلى الفلسفة المعاصرة وخاصة فلسفة هوسرل التي كان لها أعظما لأثر على فكر هيدغر.

ولكن هذا لم يمنع هيدغر من أن يبني صرحا فلسفيا خاصا به قوض به المفاهيم المتوارثة وأسس لفكر لا ينادي بالقطيعة وإنما بإعادة البدء في فهم الوجود من منظور قديم وأصيل.

ومنجمله ما انتقده هيدغر وأعاد النظر فيه هو مفهوم اللغة ودورها ومكانتها. وكان هذا الطرح الجديد بداية لمرحلة جديدة في الفكر الفلسفي. فكيف يمكن إعادة فهم اللغة وعلاقتها بالوجود؟

المبحث الثاني: الميتافيزيقا واللغة.

بالرجوع إلى الكم الهائل للإنتاج الفكري للإنسان يتضح لنا جليا لدى هيدغر أن الفكر ميزه التراكم والحشد وسلطة المنطق حيث طغيان الفكر الأفلاطوني والأرسطي، وتغيب الفكر ما قبل السقراطي، وكأن العقل البشري لا يمكنه الانسجام إلا بوجود المنطق وآلياته ويوجد مختلف المعارف العلمية التي ارتبطت به.

هذا الحضور الصارخ للمنطق حجب الوجود الحقيقي، ولخصه في جملة من القضايا الفكرية الصارمة البعيدة عن ماهية الوجود الحقيقي لقد أقام أرسطو أسس وآليات هذا العلم الذي يدعي المنطق الذي كان أحد أسباب انتقاد هيدغر للميتافيزيقا الغربية والذي يلح على "وضع كلمة منطق بين ظفرين تجنبنا للتعميم الذي يجعله قريبا للوجود"¹.

ولقد أكسب أرسطو هذا العلم سلطة قوليه خضعت لها الميتافيزيقا الغربية في مجمل تاريخها. مارس قطيعة مع الأصول قبل السقراطية وحمل الحقيقة من اللاتجانب إلى المطابقة وباعد بين اللوغوس والفيزيس. وهكذا عززت الميتافيزيقا حضورها و ساهمت في إلغاء الاختلاف الانطولوجي الممكن بين الوجود و الموجود. وأهم ما تطرق إليه هيدغر في هذا النقد هو محاولة إبطاله لتلك العلاقة بين الموضوع والمحمول والتي حولت الفكر إلى ثنائية آلية طوقت العقل وحجبت الوجود.

ولعل فلسفة الوجود هي من وضعت اليد على هذا المنظور الجديد بفضل تأثرها بالفكر الإغريقي القديم الذي جدد لها روافدها وحدد لها بعض المعالم، فهي فلسفة تقدر الوجود الإنساني وتجعل من الذات الإنسانية محور كل أعمالها وهذا ما مهد الطريق لانبثاق الإنجاز

¹– Heidegger, Introduction a la métaphysique, op.Cit. p.129.

الفينومونولوجي والذي وضع أسسه هوسرل فالفلسفة الكلاسيكية لم تكن مجرد تاريخ لسرد الآراء الشخصية فقد انقطعت عن راهن الإنسان بدعوى إن الفلسفة لا تنطوي الفلسفة على آراء فليست هناك آراء في الفلسفة وعندما يتحدث المرء عن آراء الفلسفة حتى ولو كان مؤرخاً للفلسفة فإن ذلك يكشف عن عيب ثقافته الفلسفية الفلسفة هي العلم الموضوعي بالحقيقة، فضرورتها معروفة وهي المعرفة وليست رأياً أو سرداً للآراء.

أما الوجودية كنظرية وكنسق فقد أعادت ترتيب الأولويات الفلسفية حيث قطعت الصلة مع المعالم الكلاسيكية التي اتضحت ابتداء من العصر الوسيط وتبلورت في عصر النهضة وعرفت تطورات كثيرة في إطار الفلسفة الحديثة وفلسفة الأنوار بصفة عامة. فمسألة الوجود مثلاً عولجت في الميتافيزيقا التقليدية منذ أرسطو إلا أن هيدغر كأحد أعلام الوجودية أعاد طرح السؤال الوجود من جديد عن طريق استخدام الفينومينولوجيا.

إن استشراف الجانب الأنطولوجي في تحليل المسائل (الدازين) ¹ سيخضعه هيدغر للتحليل الانطولوجي و الفينومونولوجي ويعني ذلك تحليل أساليب وجود ذلك الكائن الذي سيضطلع بمهمة السؤال عن الوجود، ويتجسد هذا جلياً في كتاب "الوجود والزمن"، وفي هذا الصدد يقول إيمانويل ليفيناس أنكتاب الوجود والزمان يمثل ثمرة ازدهار للفينومونولوجية الهوسرلية فقيمة المخزون الرائع للمنهجية الفينومونولوجية تم إبرازها من طرف هيدغر في أعمالها الأولى وخصوصاً في تحليله الفينومونولوجي للقلق كنمط أساسي لوجودنا.

¹ - كلمة دازين، ألمانية تعني الوجود أو الكينونة و (SEIN) و هنا (DA) ما يعني في ترجمة مباشرة الكائن-هنا. لكن هيدغر يقصد بذلك الإنسان القادر على طرح السؤال عن الوجود والذي يكون دائماً بعلاقة مع الوجود والآنية.

لا يمكن التطرق إلى تفويض التراث الميتافيزيقي دون الخوض في مبحث الكينونة الذي سخر له هيدغر أهم مؤلفاته وهو الوجود والزمن الذي يعد بلا منازع عمدة مؤلفاته والبصمة التي سترافق كل ما يليه من إنجازات لا يبدو الكتاب سهل المراس وواضح العبارتين الاطلاع عليه يشبه كمنيطرق أبواب قلعة موصدة لا يملك مفاتيحها إلا القلة وشرط ذلك إتقان اللغة الألمانية وحتى هذا يبدو غير كاف لأنه يجب توفر شرط التأويل والاختراق وفك طلاس كلمات نحتت بطريقة أصيلة وفريدة وقلبت كل المقاييس اللغوية والفلسفية وأعدت النظر في قراءة جديدة لا تشبه سابقتها وتمائل ما يعاصرها ولا يبدو أنها ستكرر بهذه القوة والتميز. وإذا أضفنا عنصر التركيب في اللغة الألمانية أدركنا صعوبة المهمة التي لا يبدو إنها ستسهل العمل على الدارسين والباحثين. ورغم هذه الصعوبات التقنية واللغوية فإن فلسفة هيدغر تقدم متعة فكرية ترافقها رجة للمفاهيم وزعزعة للموروث.

في كتاب "الوجود والزمان" يتحدى هيدغر الوجود يتحدث عن التيه ويربطه هذا التيه بمرحلة ما قبل التعارضية التي ارتفع فيها مؤشر الوجود وشكلت استثناء وجوديا نقل الكائن من التيه إلى الاستقرار، وهذه الرجعة التاريخية كان محورها الدازاين وتخلص في مجملها إلى أن الوجود الإنساني لا يمكن فصله عن اللحظة الآتية ولا يمكن اعتبار الزمان والمكان خاضعين لكونولوجيا تاريخية تجعل منهما مفهومين مطلقين غير قابلين للتكذيب والشك. إن الاختلاف زمني ودونه يصعب منح معنى أنطولوجي للوجود ويصعب تخطي فلسفة الحضور¹.

اكتشف هوسرل بهذا العنصر الجديد الإدراك التلقائي للوعي والبنية التكوينية بين الأنا التراسنتدالي والعالم الخارجي، وإن كانت طبيعة الأول ما هوية وطبيعة الثاني مادية.

¹– Heidegger, QU'appelle_t on penser? P76.

ونجد هذه النقلة النوعية التي قوضت المفاهيم الكلاسيكية المتداولة عبتد الطريق لهيدغر لينفرد بنظرة أصيلة متفردة تجعل إدراك الوجود يقوم على معالم أصيلة استتببها من فجر الفكر الإنساني.

إن الميتافيزيقا الكلاسيكية مبنية أساسا على أن جوهر الزمن قائم على أساس الوجود، "أي على اعتبار الوجود هو الحضور" و لقد تبنى الإنسان هذا الاعتقاد إلى درجة اعتباره بديهية بتواجدها الضارب في أعماق الزمن.

إن الميتافيزيقا الغربية منذ نشأتها كانت مرادفا للحضور ليس الحضور العادي بل الذي يتجلى في أكمل صورته وأرقى معانيه ويتسم بالصفاء والنقاء و يكون الأقرب من حيث معنى إلى الخلود. و لهذا رأى هيدغر أن منح اللغة السلطة الأنطولوجية التي تليق بها يجعلها مسكنا للوجود الانساني لان "اللغة هي التربة البكر، منبع كل متخيل و كل فن شعري"¹.

وهذا يتماشى مع مقولة شيلينغ Schelling « Vouloir être l'être originel » أي إرادة في أن تكون الكائن المميز. وكل معاني هذه المقولة يصب حتما في فكرة الخلود المستقل عن الزمن"². فهذه المقولة هي تجسيد للمعنى المثالي للزمن الذي رأت فيه الميتافيزيقا الغربية أساسا لها ومرد ذلك أن طغيان مفهوم المطلق على درجات الفكر جعل أساس الوجود هو ارتباطه بالزمن المطلق الذي يصبو إلى الكمال والمثالية.

يعتبر هيدغر أن هذه الرؤيا الشارحة للزمن فيها كثير من الغلو والتحريف للطبيعة الحقيقية للكائن، فهذا الأخير إذا ما قيست مدة حياته في الزمن فهي لا تكاد تحدد أو تكون ذات قيمة فالخلود هو أبعد ما يكون عن الإنسان، أو أن الانحصار الزمني للوجود الإنساني

¹-VOIR -IBID., p.77.

²-VOIR -IBID., p.77.

وخضوعه يجعل الإنسان مجرد عابر أو مسافر Passager قد يغادر في أية لحظة وهذا المتواجد مرادف للمحدودية والانحصار ومن غير المعقول أن يكون العابر متصفا بالأبدية.¹

مثل هذه الأفكار الخاطئة هي التي جعلت الميتافيزيقا الغربية تكرر نفسها وتستنسخ نظريات ورؤى لا جدة فيها ولا أصالة، فإذا كان الزمن في منظورها هو الأبدية والخلود والمطلق فإن هذا يعني إن الجهود التي بذلت فيها لم تنطرق إلى المسائل اللامفكر فيها L'impensé والتي نسيها أو تناساها الفكر الغربي أو لم ينتبه إليها أصلا إذن من غير المعقول بناء فكر صلب على أسس خاطئة، أو محاولة فهم الوجود باتخاذ طرق خاطئة وسبل مضللة.

إن الكاشف عن الوجود لا يمكن أن يحقق مهمته من غير عنصر اللغة. والفلاسفة الغربيون ينقسمون إلى فئتين فيما يخص مفهوم اللغة تريبا لأولى في اللغة أداة تفكيكية للفلسفة بينما الفئة الأخرى ترى فيها وسيلة لمد وتوسيع آفاق الفلسفة، وهيدغر ينتمي إلى الفئة الثابتة التي تجعل من اللغة الوسيلة المثلى لفهم الإنسان والإحاطة بشبكة العلاقات التي يؤسسها.

و لا يمكن لأحد أن لا ينتبه إلى عبارة هيدغر "اللغة مسكن الوجود" والتي تحولت إلى بصمة هيدغيرية محضة "إن الوجود يؤرجح كل الموجودات و يشدها باعتباره مركز الجذب الممارس على الموجود قد يفقده توازنه من هنا كانت عملية الترك والتخلي والانسحاب جوهر الميتافيزيقا، ومنها قدرة الوجود على التفكير الصحيح".²

¹ -Heidegger ;Chemins qui mènent nulle part ;op.cit ;p330

² – Heidegger Les chemins qui ne mènent nulle part, Gallimard, PARIS. p.338.

ولتحقيق هذا التوازن و منع أي خلخلة له، يجب استعادة التفكير الصحيح الذي سينطق الوجود عن طريق اللغة التي هي المفتاح لكشف الحقيقة وفتح مجالات استعادة الأصالة المفقودة، و أول هذه المعالم الكاشف للتحجب هو العودة إلى الأصل الإغريقي.

يبني هيدغر التسلسل التاريخي الذي قاده إلى الحقائق النهائية عن طريق رسم جينالوجيا حقيقية، التي لا بد أن تنطلق من فترة ما قبل التاريخ، ولا يمكن ضبط رؤيا واضحة لهذا التأسيس الجديد دون التطرق إلى التأويل و دوره في بلورة آراء هيدغر.

ويضيف هيدغر "أن أبسط التعابير اليومية مثل السماء زرقاء أو أنا سعيد تظهر قصور الفهم، حيثأن الاعتماد على المفاهيم القبلية في تفسير الظواهر يبقى دوما محاطا بالظلامية والغموض، لذلك استوجب إعادة النظر في مسألة الوجود"¹.

ولذلك إعادة النظر في مسألة الوجود يكمن في تفويض كل المفاهيم الموروثة، لأن الميتافيزيقا الحقة لن تدرك معنى الوجود إلا إذا فكرت فيه كحضور دائم، لأنه كما يضيف هيدغر الصفة الأنطولوجية للوجود هي التي ستحسم الأمر "الوجود ليس شيئا مثل الوجود"².

واللغة عند هيدغر هي كشف للوجود الإنساني والموجودات الفردية من خلال تحجمها و لكن كيف يمكن الوجود على نحو ما في اللغة؟ ولماذا يعتبر هيدغر أن اللغة تخفي أكثر مما تفصح؟ وإن كانت مؤشرا للوجود الإنساني فكيف تكشف عن مكوناتها وكيف تثير هذا الوجود؟ وما سر الارتباط الوجود انطولوجيا باللغة؟

و احتاج هيدغر في هذا الطرح لمسألة الوجود إلى قاعدة صلبة. ولهذا كانت استعانتة بمنهج استاذة هوسرل مفصلية ومهمة. بيد أن فينمولوجيا هيدغر اخذت طابعا انطولوجيا

1- Heidegger, L être et le temps, trad., Martineau, Ed numérique, paragraphe 5, p.26.

2- Heidegger, Identités et différence, II et IV, op.cit, p.305.

مميّزا تجاوزت به كل محاولة سعت عند فلاسفة آخرين إلى المطابقة بين الأنا السيكلوجي والانا التراسندالي.

لقد حاول هيدغر أن يوازن بين السؤال عن الكينونة وبين تحقيق السؤال، فوجد أن اللغة هي من تتوسط بين الكائن والكينونة فهي مسكن هذه الكينونة بكل انفعالاتها المتعاقبة كالشعور والقلق والموت والعدم. وكلما تحمله السوداوية الأنطولوجية.

ولمحاولة فهم ما أراده هيدغر من هذا الربط بين مسألة الوجود، لا بد من استعادة ما قاله هذا المفكر على المستوى الأنطولوجي العام.

استفاد هيدغر من أستاذه هوسرل الذي جعل الفكر الغربي يعيد حساباته و يصحح مساره و يستعيد الأنطولوجيا الأصلية، ولذلك نلاحظ أن هيدغر ينزعنزعوا أنطولوجيا في بناء فكره، و خصوصا عندما يتعلق الأمر بالمسائل ذات البعد الوجودي.

إن جل ما كتبه هيدغر يشير إلى انحراف الفكر الغربي عن أصوله العريقة و عن تاريخه الحافل، لذا فإن فلسفته قائمة على المصالحة مع الإرث الضارب في العراقة والأصالة، ولاسترجاع هذا الإرث لا بد من تعلم الفكر وآلياته. لهذا يكون الفكر الميتافيزيقي الأصليل البوابة الأولى التي تكشف لنا الوجود وأصالته.

ويستدعي هيدغر هذا التاريخ غير المفكر فيه، و التأويل المسكوت عن انطلاقا من هذه المحطة الأولى، إن هذا التاريخ الغربي القديم للفكر تعودنا إلى فترات كثيرة حجب فيها "الوجود الذي هو انكشاف وانتشار، يظهر أمامنا و يختفي في الآن ذاته"¹.

إن الفترة السابقة لسقراط كانت الحقيقة فيها غير متحجبة وكانت الميتافيزيكا فاهمة ومدركة لإبعاد الماهية التي بحثت فيما بعد، وفي محاضراته حول ماهية الحقيقة يدفع

¹- Heidegger, Le principe de la raison, , trad. APréau, Gallimard, Paris, 1962, p.148.

هيدغر الحقيقة إلى أصلها قيل السقراطي مثل الأليثيا Aleteia بوصفها ما يسمح برؤية ما انسحب من النسيان الميتافيزيقي، و في الفراغ الذي سنته المطابقة، لا يصل التناطبق حقيقة الوجود لكونه حكما يتغير بتغير حالة الحكم. أما الأليثيا فهي الأصل في الانكشاف، وهي ما كان موضوع الانكشاف منذ بداية الفكر.

الأليثيا هي مصارعة خطر الاختفاء و البحث عن إمكان استدعائها يحتاج كل إجراء وإلى رصد بواطن الاختفاء وإن كان الأمر عسيرا، ويعد برميندس من الذين أدركوا هذه الحقيقة قبل الانكشاف يحتاج إلى اللانكشاف بوصفه مهبط الوجود، تلك هي "الأليثيا" أن تبقى على السر كما يعنيه الإغريق و يبقى العنصر المثبت على إصداره، بعد أن وقع نفيه في الظاهر، غامضا.

إن الموانع التي حالت دون الاتصال المباشر بالفكر الإغريقي هي خيانة اللغة الإغريقية وخيانة الترجمة والتي سببت فهما مشوها للرؤية الميتافيزيقية للحقيقة.

إن جل اللغات الأوروبية لم تكن وفيه في ترجمة الأليثيا وتبيان الفرق بين الأليثيا والحقيقة، لذلك حجب مفهوم الحقيقة، وفي هذا يقول هيدغر "لم يهتم الغرب بالاختلاف بين الحقيقة والأليثيا ولم يهتم بالحرف المزيد "ألفا" الذي يحجب ذاته حسب ما يراه الإغريق، ويبسط بسلطانه على الكون محددًا حضور كل موجود لهذا السبب كان الاسم الذي أعطى الإغريق لما سماه الرومان Vertus ولما أسمتها الفرنسية vertue يحمل ألفا الدالة فيها على صفة مميزة خاصة"¹.

وهنا إشارة واضحة إلى أن اللغة هي الكاشف للوجود، حيث أن تراجع فهم اللغة الإغريقية القديمة حال دون فهم الميتافيزيقا قبل السقراطية والتي حملت الكثير من الأصالة

¹- Heidegger, les concepts fondamentaux de la métaphysique, trad. Pascal David, Gallimard, Paris, 1962, op.cit, p.55.

والإضاءة، إن إنجاب الوجود هو فقدان اللوغوس Logos و"القدرة على التأمل على ما يشرق تلقائياً"¹. واللوغوس لا يحتاج إلى من يظهره، وهو يظهر بالتعيين بوصفه انكشافاً وانجاباً معاً.

يتحقق الانكشاف إذن في العلاقة بين اللوغوس و الأليثيا، فما يظهر يحتاج إلى الاختفاء، "ذلك ما حمله هيرفليطس إلى فلسفة اللوغوس و الأليثيا فهما واحد، لا يختلفان إلا في التسمية فالانكشاف يحتاج إلى الاختفاء"².

إضافة إلى علاقة اللوغوس بالأليثيا ودورها في كشف الوجود، نرى أن التراجيديا الإغريقية كانت أيضاً إحدى الركائز الهامة التي بنيت عليها فلسفة هيدغر الأنطولوجية، إنها تراجيديا تعرف في الانفعال المأساوي و تظهر ذلك الصراع الدائم بين مختلف الكائنات الأسطورية. "إن تاريخ الفلسفة اليونانية الخفي يكمن منذ بدايتها في أن عليها ألا تبقى متمسكة بجوهر الحقيقة الذي يومض في كلمة "أليثيا" و أن تنتقل علمها و قولها من جوهر الحقيقة شيئاً فشيئاً إلتأويل جوهر مشتق يتصل بالحقيقة".

وتأتي صورة البطل المنقذ هي الفاصلة لهذا التحجب الوجودي، إذ يرى هيدغر أن الفكر اليوناني يحمل كل المؤهلات و الأسباب التي نتقنا من التعثر الوجودي إذا قلنا تراجيديا فإن ما يتبادر إلى أذهاننا مباشرة هو الإلياذة والأوديسيا وكلها قصص الفت ضمن ملاحم الإنسانية.

ويضيف هيدغر أن تألق التراجيديا اليونانية القديمة راجع أساساً إلى قوة اللغة الإغريقية القديمة، لغة ترجمت الوجود الحقيقي، وهي التي كانت تمارس سلطتها على الإنسان، ويظهر هذا في قوله: "إن العلاقة الحقيقية بين اللغة والإنسان هي قلب الموازين

¹- Heidegger, : Essais et conférences, op.cit, p.267.

²- IBID, p.262.

الحالية، والاعتراف بسيادة اللغة على الإنسان. لأن اللغة هي التي تتكلم، الإنسان يقوم بالإنصات، تبقى اللغة هي الأولى والأخيرة في ربط الوجود بالشيء¹.

والثنوية (ثنوية الوجود) ملتحمة بالفكر، وهي وحدة وتجميع للموجودات ودعوة للفكر أن يفكر ويتأمل في ما يظهر أمامنا، وهو ما يقال وما يتمثل مع اللغة أن الوجود يسأل عبر اللغة شريطة أن تحسنا لإصغاء والإنصات إليه و لهذا يتعين إذن التفكير في اللغة باعتبارها مأوى حقيقة الوجود و مسكن الإنسان في الآن. لكن الإنسان نفسه هنا ليس كما تختزله ماهية الموجود الميتافيزيقي، و إنما بوصفه "الثنوية الوحيدة الممكنة لكي تخترق حقيقة الوجود والموجود"².

أنه فكر متحرك باتجاه ثنيه الوجود، ومقام على الانكشاف ويتطلب الإنصات، فالفكر لا يفكر إلا في حدود ما يقال، ويعمل هيدغر على حمل الحقيقة إلى الكلام، ولكن اللغة المنوط بها هذا الدور ليست لغة المنطق، وليست لغة الميتافيزيقيا، وليست لغة الإنسان الناطق، وهو ما يذهب إليه هيدغر في كل تأويلاته للغة "بموجب ذلك تضحى، الكلمة قولا يحفظ حقيقة الوجود واللغة موطننا له"².

ويتجلى الحضور الأنطولوجي في المرحلة ما قبل سقراط في علاقة الوجود بالتفكير كما يتجلى في الطريقة اليونانية في التساؤل والتي بقيت هي نفسها طوال تاريخ الفكر الفلسفي "ليس فقط ما هو موضوع السؤال، أي الفلسفة، هو اليوناني من حيث الأصل، بل كيف سال أي الفلسفة أي الطريقة التي سال بها، لا تزال يونانية حتى الوقت الحاضر"³.

¹-IBID, p.228.

²Heidegger ;Nietzsche II ; nrf ; Gallimard ;1971 ,p393

³- Heidegger, question, Gallimard, Paris, 1971, p.82.

1- مارتين هيدغر، ما الفلسفة؟، ترجمة: محمود ديب، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة، 1974، ص55.

فلابد من التحرر من التقويم التقليدي الذي دأب عليه فلاسفة البدء الأول لإشارة إلى مرحلة ما بعد سقراط لأنه تقويم يفتقد إلى التشريع وإلى أرضية انطولوجية، ترفع مقام الحقيقة انكشافا واحتجاجا في الآن ذاته.

يتطرق هيدغر في عرضه للحجب الانطولوجي بعرضه لموضعين يتضح اختلافهما إلا أن هيدغر يجمع بينهما في رؤية مشتركة، فبرميندس ينفي الحركة والتغيير ويقرر الوحدة بينهما، بينما هيراقليطس ينظر إلى الوجود من جهة التغيير والصراع.

فيجمع هيدغر بينهما ليزيل التنافس ويرفع من شأن الوجود، أما برميندس فقد كان فكره واسعا ومنفتحا على فكر الوجود، فالفكر لا يختلف عن الوجود، وكان يفرق بين الكلام والنطق "الكلام هو التعبير عن فكر داخلي يعبر عن الروح، فهناك أرضية مشتركة بين اللسانيات والسيمائية"¹. و"ما توصل إليه برميندس هو ذلك الانصهار والتآلف بين الجسم والوجود"² ويضيف هيدغر معلقا على برميندس إن اللغة المنطوقة ولغة الأبعاد والإشارات ليست هي ما يشرح الفكر و يكشف عن الوجود.

فالغرب يحتاج إلى الإنصات إلى برميندس لأنه مهمش رغم أصالته فلقد وضع اليد على حقيقة الوجود، ورغم ذلك لم ينل مكانته المستحقة فهو يرفع الوجود موضعا رفيعا، يتمثل مع الفكر ويظهر في ما يقال داخل الثنية ملتحما بالفكر، فبرميندس لم يميز بين الفكر والوجود، و كانت له القدرة على التفكير المتأمل والقائم على الإنصات لنداء الفكر والوجود، ويمكن القول أن موطن الوجود عنده هو القصيدة إذ "ماتل برميندس في الشذرة الثالثة بين الفكر و الوجود"³.

¹- Heidegger, Essais et conférences, p.295.

²- IBID : p296.

³- Heidegger, Essais et conférences, op.cit., p.279.

وعودة هيدغر إلى برميندس هي عودة استثناء لمفكر كان أصيلاً، ومازال موقفه يؤرق راهن الفلسفة ويحتاج إلى مساءلة جذرية، وهو ما لم نجده في فلسفة الحداثة، فليس هناك من محاولة في ضم الفكر للوجود.

إذ لا يمكن فهم الوجود خارج إطار الفكر الذي بدوره يسكن اللغة وإذا كانت الميتافيزيقا منذ الحقيقة الأرسطية قد جعلت الميتافيزيقا هي من يحكم العلاقات، وقد وظفت في ذلك أدواتها العلمية و المنطقية والتي جعلت الكائن في حالة تيه وحجبت الوجود عن الظهور فان اللغة بالنسبة لهيدغر هي من سيسترد مكان الوجود لأنها هي مسكن الوجود.

المبحث الثالث: التقويض الفينومولوجي للتراث الميتافيزيقي.

اللغة عند هيدغر تتوسط بين الكائن والكيونة، أي أنها تتوسط بين الكائن ومسكنه، وممكن نوازه وبيت أسراره ولم يجد هيدغر أمامه لتجاوز الانطولوجيا اليونانية إلا الولوج في عمق الفينومينولوجيا الظاهرية، ولذلك انطلق من أهم مسلمة من مسلمات الفينومينولوجيا وهي القصدية Intentionalit والتي هي في محصلتها الأساسية إعادة ترتيب العلاقة الأبدية بين الذات العارفة وبين موضوع المعرفة وحق مبدأ تبادلي ومنهجي وهو الشعور أو الوعي، بحيث ينطبق عليها مقولة هوسرل الشهيرة "كل شعور هو شعور بشيء ما"، و في ذلك تشابه مع الفكرة المعرفة الترندتالية التي جاءت بها فلسفة كانط، والتي مفادها أن المعرفة لها صور هي الأسس العقلية القبلية، ومادة وهي عبارة عن الموضوعات التي تتحصل عليها من التجربة.

فالظاهرية التي يعرفها مؤسسها هوسرل بأنها "العلم الذي يدرس الماهيات التي توجد بالكون الحميم" ووجد هيدغر فوجد في الفينومينولوجيا بهذا المعنضالتة وخصوصاً فكرة القصدية، لأنها تهتم بدراسة جواهر الأمور وأصولها وتحت على الرجوع إلى الجواهر

الانطولوجية، فهي كما يصفها هيدغر فلسفة الذات التي تتحقق من وعيها بذاتها، أو بعبارة أخرى ذاتية الذات، وبهذا نستنتج أن هيدغر اعتمد على الفينومينولوجيا الهوسرلية للوصول إلى الانطولوجيا.

اعتبر هيدغر الفينومينولوجيا هي العودة إلى الأشياء ذاتها بما فيها كل التركيبات العامة والعرضية للاكتشاف، فهي المبدأ الجوهرية لأي معرفة أيا كان موضوعها، وبهذا حاول هيدغر تجديد مضامين الفلسفة حيث فتح آفاقا جديدة للممارسة الفلسفية، ولم يكن هوسرل في هذا المجال الأخير الذي أثر على فكر هيدغر، فلقد ترك الفيلسوف النمساوي فرانس بيرنتاتو عن المعنى المتعدد للوجود عند أرسطو أثرا عميقا في صقل رؤيا هيدغر وإيقاظ كثير من الأسئلة لديه، من بينها إذا كان للوجود معان متعددة فما هو المعنى الأصلي من هذه المعاني؟ وما معنى الوجود؟ هذه أسئلة تطرق إليها قدامى الإغريق في فلسفتهم الخاصة بالفكر والوجود.

إن استعادة أصالة المفاهيم عند هيدغر يوقظ الفهم ويجعل الفكر أعلى قيمة مؤشرة على الوجود، وكل ذلك مبني أساسا على التوطئة الفكرية إذ اعتبر جانب صغير يساهم في بناء وسير الآلة الكبيرة للوجود.

واللغة عند هيدغر هي مفتاح الوصول إلى الجوهر الوجودي، وهي النافذة التي نطل من خلالها على المجهول، فتحجب الوجود عنا يتحقق لاعتمادنا على تفكير غير صحيح، فالميتافيزيقيا من أفلاطون إلى هيجل شوشت الفكر وأضاعت الطريق الصحيح لمعرفة الوجود، فالميتافيزيقيا الغربية بكل ما احتوته من ضرورة التفكير والمعارف لم تتجحف الكشف عن الوجود الحقيقي. لأنها ضلت حامية للغة العلمية و القضايا المنطقية، إضافة إلى تحديد مسار الفلسفة وعرقلتها عن البحث عن الحقيقة، وتحويل المفكرين و الفلاسفة إلى عمال

ومدرسين¹ إن الرابطة المنطقية ضرورة فكرية ولغوية فرضها الفكر الميتافيزيقي "تعكس علاقة الفكر بالواقع دون الاهتمام بمحتوى القول بالعلاقات القائمة بين الأشياء"². فهي لحظة انفصال الفكر عن الوجود، وهي إعطاء لميلاد المنطقي فالإرث الفكري الغربي سيما المتعلق باللاهوت المسيحي استعاد المقولات الأرسطية وقوالبها وقواعدها لجعل المطلق أعلى مقام للوجود وهو لذي لا يقوم إلا على المنطق.

إن الميتافيزيقا، ومنذ أرسطو، حددت نفسها كانطولوجيا، أي كعلم الوجود بما هو موجود وفي هذا الإطار يضيف هيدغر "صحيح إن الميتافيزيقا تتمثل الموجود في وجوده، وبذلك فهي تفكر في وجود الموجود، إلا أنها مع ذلك لا تفكر في اختلاف الوجود عن الوجود"³ فهي نسيان الاختلاف بين الوجود والموجود، وتبيان الوجود هو لا محالة إغفال لقضايا الكائن الأساسية. ولعل حضور هذه النزعة المنطقية في عمق الميتافيزيقا هو ما عطل إدراك الوجود وتجلياته.

ومن يقول المنطق فانه حتما سيرتكز على مبادئه التي قولبت المعارف، و أبرزها مبدأ الهوية الذي لم ينظر إليه هيدغر نظرة دياكتية هيجلية، لأن هيجل حاول منذ البدء الخروج عن الاتجاه الاختياري الساذج الذي يرى في الهوية وحدة وانسجاما، لكنه لم ينتبه إلى الاختلاف الحاصل والتنوع الموجود بين الأشياء من حيث تميز بعضهما عن بعض. فإلإن الوجود هو المحك الأصلي لمحاكمة التطابق والبحث عن حقيقة الوجود، فنداء الهوية لا يتكلم إلا انطلاقا من وجود الموجود من حيث هو ذات الموجود.

¹ - Deleuze, Nietzsche de la philosophie, PUF, 4eme édit, Paris, 1976, p.110.

² - Heidegger. Les problèmes Fondamentaux de la phénoménologie, trad. J.F Courtine, Gallimard .Paris..1985 P.217.

³ - Heidegger, lettres sur l'humanisme, in question III, édition Gallimard, Paris, 1966 p.108.

ويستعين هيدغر بالتراث قبل السقراطي لإبراز الخلل في الفهم المنطقي لمبدأ الهوية وفي هذا اصطدم بجهاز لغوي متشعب بأطراف التطابق، ومطوق بقيود المنطق التقليدي الذي ساهم في نسيان الوجود، إضافة إلى أن عدم تجديد العدة المفهومية و تطوير آلياتها جعل اللغة تسبح خارج إمكانات تطورها الطبيعي¹ وكل هذا كان نتيجة لاستخدامه الميتافيزيقي (مبدأ الهوية). لم تعمل الميتافيزيكا على إفراغ اللغة من محتوياتها، وإنما اختزلتها في جملة إشارات استنفذت دلالتها.

إن اللغة الحديثة بكل الترسانة المفهومية و بكل ثقلها الدلالي لم تتمكن من الانتباه إلى إشكالية المعنى و الحقيقة، فحداثة الكلمات لا تعني الفهم العميق للمدلولات. وإذا كانت اللاتينية مثلت لغة الفلسفة الحديثة بكل ما تفرع عنها من نظريات و اتجاهات إلا أنها بقيت بعيدة عن الهدف الحقيقي والمعاني الأساسية التي تجسدت في اللغة الإغريقية والتي نقلت معاني الوجود نقلا أصيلا، فهيا اللغة التي ظهر فيها الوجود متحررا من ضبابية الميتافيزيكا، فالوجود من غير لغة أصيلة يتحول إلى كلمة "فارغة ودلالة متلاشية"² كما أن سطو المنطق على الفكر وهيمنة الروح الأرسطية عليه كان له دورا خاصا سيما في النزعة الماهوية التي تكتسي صفة الكمال. ولعل هوسرل كان من الذين رفضوا القوالب المنطقية و القواعد النحوية و جرد الدلالة من كل مضمونها التاريخي، وحولها إلى دلالة عملية. ومشكلة اللغة الحديثة هي أنها استنفذت محتوى عدتها الدلالية فاستحال بذلك كشف الوجود الحقيقي، ولم يعد ممكنا طرح إشكالية الوجود و متابعة تطورها التاريخي، إن الوجود لا يحتاج إلى تحديد مفهوم فاللغة ليست مجردة أداة يملكها الإنسان، بل هي ما يضمن الوجود وسط الموجود.

¹- Heidegger, Identités et différence, in QI et II, op.cit, p.260.

²- Heidegger, Introduction à la métaphysique, ED Gallimard, 1996, op.cit, p.83.

وينتقل هيدغر في هذا الموضوع ويجعله لصيقا بالواقع موظفا بذلك حججا معينة و محددة تظهر هذا القصور اللغوي في الطرق التربوية وفي رتبة التلقين المعرفي، فيعتبر إن توصيل المعارف بالنماذج المعمول بهاتصب في مجال علمي معرفي يتسم بالتراكمية و السطحية وبيتعد عن جوهر الفكر "ومازلنا نتخبط في نفس الدوامة، إن لم نتدارك الأمر، وهو تغيير الأسس التدريسية وتحولها من مجال علمي تلقيني إلى أداة لبناء الفكر الحقيقي"¹ فلا بد من الابتعاد عن هذا الجمود الفكري الذي تسبب فيه الفهم السطحي للغة وإدراك دورها الحقيقي، وفي نفس السياق "يجب إحداث ثورة تصحح علاقتنا باللغة"² كل ذلك يدل على أن الترسانة الدلالية و العدة المفهومية التي تستعمل في المجال الفلسفي تظهر قصورا في فهم دور اللغة الحقيقي، و اللغة المنطقية هي من حولت المفكرين إلى مدرسين، وهذا يبدو جليا في الميتافيزيقا التقليدية فهي لا تخرج عن نطاق كونها مجرد علم للموجودات أو علم تحليلي للكائنات، بدل أن تكون انطولوجيا وعلم الوجود، قادرا على إدراك فعل الوجود، إن أزمة الوجود هي أزمة لغوية، وعلى الفينومينولوجيا الارتقاء بأساليبها وأدواتها قصد مواجهة القول الميتافيزيقي. وهذا لنيكون ممكنا إلى بالرجوع إلى اللغة الإغريقية لأنها متصلة بالوجود ولم تخضع لسلطة الذات ولا لسلطة المنطق، وهي دائما على اتصال باللوغوس و ببناء الوجود.

إن أصل اللغة الإغريقية هو أصل كل القوالب اللغوية والعدة المفهومية الحالية، لكن عدم الانتقال الأمين وعدم استعادة الروح الحقيقية لهذه اللغة هو سبب وقوعها في يد المفكرين الرومان الذين لم يدركوا كنه أصالتها، وتداول اللغة اللاتينية من القرون الوسطى إلى العصر الحديث، غيب بريق لغة الإغريقية الوجودي و غطى على قدرتها على التتوير الحقيقي، ومع ذلك نجد "أن تكوين قواعد اللغة الغربية وتأسيسها راجع

¹ - IBID, p.64.

² - IBID, p.64.

بالضرورة إلى اللغة اليونانية¹ وفي هذا إشارة إلى مرجعية هذه اللغة و دورها في إدراك معنى الوجود، الذي لا يتأتى بضبط عدة مفهومية تتماشى مع دورها الحقيقي. فالوجود كما يشير هيدغر هو مفهوم متعال تجسد عند لغة الإغريق القدامى. ولتحرير هذا الوجود نحتاج إلى كلمة أصيلة سابقة الوجود في كل لغة وهي الكلمة المتعالية التي تضمن إمكان وجود جميع الكلمات الأخرى. "نكتفي في البداية إلى الإشارة إلى ما في اللغة الإغريقية من خاصية من فريدة إذ أن الكلمة التي تتفوه بها تسمى فعلا ما تشير إليه لما نصغي إلى الكلمة مباشرة، فإننا نعاين انسيابها في الهواء، كما نعاين ما تشرحه مباشرة، فما تفسره هو وما يعرض تمامنا، إذن، تجد أنفسنا عندما نسمع كلمات إغريقية أمام المعروض أمامنا، لا مع مجرد الدلالة اللفظية"².

إنه من الضروري كما يقول هيدغر التأمل في الإشكال الأساسي الخاص بالاسم وال فعل كما هما ظاهرين في اللغة اليونانية فهو مرتبط أساسا بالمعنى الحقيقي للوجود والذي تحول بموجب ذلك إلى مفتاح أساسي للغرب في فهم الوجود.

وخلافا للعصور الوسطى و العصر الحديث أين أصبح التفكير في الوجود يأخذ طابعا لاهوتيا، بمعنى يضيف صبغة لاهوتية إلى الميتافيزيقا فان الفلسفة ما قبل سقراط سيما عند برميندسوهيرقليطس كانت هي الفلسفة الأصلية التي نسجت روابط أصيلة بين الوجود و الفكر. لكن تلاشي هذه الحقيقة الذهنية جعل تاريخ الفلسفة الغربية متصفا بالتفكير الإحصائي المغاير تماما للتفكير الوجودي.

إن الميتافيزيقا لم تهتم على الإطلاق بالسؤال عن الوجود من حيث هو الوجود وعدم اهتمامها راجع إلى طبيعة التمثيل الميتافيزيقي، ذلك التمثيل الذي يقاوم التفكير عن ماهية

¹- IBID, p.67.

²- Heidegger, Qu'est ce que la philosophie, op.Cit, p.364.

الوجود. ويتجلى ذلك مثلا في فلسفة توما الإكويني الذي ينظر إلى الوجود على انه فعل خالص، أما هيجل فيعتبره تصورا مطلقا، بينما نيتشه يمثله في العود الأبدي لنفس الشيء الذي يتجسد في إرادة القوة، فهذه الضروب من التفسير يعتبرها هيدغر قاصرة على النفاذ إلى عمق السؤال المتعلق بالوجود، فهي غالبا ما تحوم حوله، دون احتوائه وتحديد جوهره. لذلك فهو يدعونا إلى التحرر من التفكير الإحصائي للغة يجب علينا عند التعامل مع اللغة أن نكون واقعين في شراكها بدل أن نوقعها شراكتنا.

المبحث الرابع: أصالة التأويل الهيدغري.

الدارس للفينومينولوجيا أو الهيرومونيوتيفا سيجد حتما انه لهذا العلم جذور ضاربة في القدم، فالحفريات الجيني الوجية تمتد إلى العصر اليوناني لتصل إلى العصور الحديثة بعد مرورها بعدة محطات تاريخية، والتراث التأويلي كان يرتكز في الفكر المسيحي حول قراءة النص المقدس خصوصا فيما يتعلق بالحركة الإصلاحية اللوثرية.

ومع دانهاور بدا التفكير المنهجي والتقني حول الهيرومونيوتيفا وأساليب وطرق تفسيرها لنصوص، وتم أيضا تطبيق قواعد التأويل على التراث العلمي.

وأهمية الذات العارفة في تأسيس موضوع المعرفة الذي افتتحه كانط كان له دور لا يستهان به في إعطاء دفع جديد للهيرومونيوتيفا كنظرية تأويلية تحتضن التصورات الذاتية كعوامل لا مناص منها في إضفاء المعنى والدلالة وإعطاء الفهم والاستيعاب، لكن هذه الحركة الذاتية كانت لها قيود وعوائق حصرها الرومانسيون الألمان، (مثلشليغل وشلايماخر) الذين فرضوا قواعد وقوانين صارمة على النصوص وتأويل محتوياتها بالبحث عن قواعد وأسس من شأنها أن تساهم في "علموية" العلوم الإنسانية أو علوم الفكر.

لكن مع هيدغر سيتم قلب كل المشكلات الابستيمولوجيا للهيرومونيوتيفا والعلوم الإنسانية ليصبح فهم طابع إنساني يميز جذريا علاقة "الدازين" Dasein بالعالم وبذاته وعلى منوال هيدغر يركز غادامير على فينومينولوجيا التأويل من خلال تفكير ابستيمولوجي منهجي حول ظاهرة الفهم.

إن للهيرومنطقيا عدة تعريفات، أغلبها يشير إلى علم التأويل وبخاصته مبادئ التفسير النصي، ولها جذور في الكتاب المقدس المسيحي خصوصا عند البروتستنت، أي تفسير النص المقدس.

وشلايماخر عرفها بوصفها الفهم اللغوي، فهي تتجاوز كونها فيلولوجيا، ولكن مع هيدغر تعمق مفهومها في كتاب "الوجود والزمان" فصارت موصولة بالأبعاد الأنطولوجية.

ويعود الفضل إلى شلايماخر في نقل التأويل من دائرة الاستخدام اللاهوتي ليكون علما أو فنا لعملية فهم النصوص وشروط تحليلها وإذا انتقلنا من التأويلية التاريخية إلى التأويلية الفلسفية نجد أن هيدغر قد أقام الهيرومنطقيا على أساس فينومونولوجي أي في المجال الحيوي الذي يضمن فهم الإنسان للوجود في شكله الأكمل وقد أعاد هذا المنهج إلى جذوره اليونانية، والذي يعني ظهور الشيء في ماهيته الأصلية في نظر هيدغر، وهذا الظهور يأتي من خلال تكشف الأشياء نفسها من خلال اللغة (الكلام) فاللغة حسب هيدغر ليست أداة للتواصل اخترعها الإنسان ليعطي للعالم معنى. إن اللغة تعبر عن المعنوي القائم فعلا في الأشياء فالإنسان لا يستخدم اللغة، بل أن اللغة تتكلم من خلاله، والعالم يفتح من خلال اللغة، ويفهم من خلالها وفي هذا النموذج الذي يقدمه هيدغر يشير إلى فهم الآنية الموجودة باعتبارها المصدر النهائي لمسألة الكينونة الموجودة في العالم وكذا الموضوعات القائمة في الواقع حيث أنه لا يفرق بين الذات والموضوع، فهو يجمع بين الأنا وكينونة العالم تلك التي تجعل من الآنية في العلم، فاللغة والشعر والنص الأدبي ليس ذاتيا أو موضوعيا بل تجربة وجودية، وهنا يميز هيدغر بين التفسير Explication والفهم Compréhension الذي على أثره استطاع أن يتوصل إلى ما يسمى بالتركيب الخاص بالآنية، أو الوجود Dasein الذي يسعى إلى الحقيقة واكتساب المعرفة والتأويل، أي اكتشاف التفسير الذي يظهر نفسه بنفسه.

أما دلتاي فيرى أن الوقائع التاريخية تأتي بشكل مستقل عن الإنسان غير أن هيدغر يرى أن البنية التاريخية هي بنية الوجود الذي هو إطار الفعل وبالتالي فإنه يحاول أن يوحد بين اللغة والعالم وأن هذا الوجود يتماشى مع اللغة.

إن الوجود في العالم هو بمثابة تحديد أنطولوجي، فالعالم هو مجموعة علاقات تغلو على الذاتية والموضوعية. والإنسان وحده هو الذي يملك العالم بمعنى انه يعيش فيه، ويسمح للأشياء بأن تظهر، وظهور العالم وانكشافه إنما يكون من خلال اللغة التي جعلها هيدغر مركز اهتمامه الفن والشعر. فلقد وجد الطريق إلى فهم معنى العالم من خلال فهم اللغة ذاتها، وهذا الارتباط الهيررو منطقي الفينومولوجي بين العالم و اللغة، اتخذ طابعا وجوديا وكشف عن الوجود نفسه للذات التي تؤول.

وهناك خاصيتان أساسيتان تميزان هيرومنوطيقا هيدغر في تعاملها مع النص، وقد تردد صداها هيرومنوطيقا فيغادامير.

الخاصية الأولى هي أن النص يكشف عن الوجود وينطوي على حقيقة ومعنى يتجاوزان إطار بنيته الشكلية والخاصية الثانية أن تفسير النص وبالتالي فهمه يقتضي تجاوز إطار الذاتية والموضوعية معا. وهذا يعني أن الطريق إلى فهم النص يفترض فهم ماهية اللغة ذاتها، إذ أن اهتمام هيدغر باللغة يرجع إلى فترة مبكرة من فكره حين أبدع كتابه 'الوجود والزمان' ولكن هذا الاهتمام أصبح بشكل جليا في مجال فكره المتأخر.

إن هيدغر يدعونا إلى التحرر من التفكير الإحصائي للغة يجب علينا عند التعامل مع اللغة أن نكون واقعين في شراكها بدل أن نوقعها (أي انه مرتبط بقضية الكينونة).

الفصل الثاني

البعد الوجودي للشعر

المبحث الأول.

1- البعد الوجودي للشعر وخصائص اللغة الشعرية:

لعل أكثر ما يبرز البعد الوجودي للإنسان هي الكلمة التي لا يمكننا فصل تمثالاتها عنه، هذا ما يتجسد في ابسط التفاصيل ويتموقع في كل تفاصيل الفكر ويستحوذ عليه.

"إن الحديث عن الكلمة يكاد يكون أشبه بالحديث عن الصمت وحديثنا عنها لا يعني محاولة تطويقها والإنقاص من تأثيرها بتحويلها إلى أفكار مقولبة وثابتة مسبقاً"¹.

فهي ليست مرادفاً للفهم أو الإدراك بالشروط المنطقية التي تهيمن على العقل واضعة له قواعد وضوابط لا مناص له من الانصياع لها، فالكلمة بعيدة كل البعد عن التكرار النمطي، والتضييق العقلي المسقف بجملة من القواعد والقوانين التي تحدد من اتساع الكلمة وتقضي على كل تحديد ممكن.

وإذا ذكرت الكلمة ذكر الشعر الذي تدور في فلكه كثير من المعاني وتتراحم حوله الكثير من الصور، والشعر يربط الكلمة لا محالة بالشاعر الذي ينمي دوره كما يقول هيدغر على استنطاق وإيقاظ صوت الطبيعة الفطري الذي شوهته التقنية بكل مظاهرها.

واللغة هي من يحقق الانفتاح على المجهول، فمن أفلاطون إلى هيدغر حجب الوجود وتأسست ميتافيزيقاً قولبت كل المفاهيم، وأبعدت الكائن في مدارها، ولا ملاذ لنا كما يقول هيدغر إلا التعلق بهذه اللغة وكشف خباياها لأنها المستتقة الوحيدة للوجود، فكل الأنطولوجيات المتعاقبة غيببت الوجود إما سهواً أو عمداً، لذلك فالتأسيس لأنطولوجيا جديدة هو أول خطوة لاسترجاع هذا المفقود، فأرسطو مثلاً كان له الحظ الأوفر في هذا التغييب لان منطقته الصوري بكل دلالاته حصر العقل، و أطفأ نور الحقيقة، فهذا الكائن (اللغة) حصرته الدلالات المنطقية لأرسطو "وجعلته موضوعاً مبهماً ملتبساً"².

¹ - Heidegger, Acheminement vers la parole. Trad. JEAN Beaufret W. Brokmeir et F. Fedier, Gallimard, Paris, 1976, p14.

² - Heidegger, Les problèmes fondamentaux de la phénoménologie, op.cit, p.285.

إن اللغة كثيرا ما ضللت الخطاب الميتافيزيقي وعجزت عن مواكبة التطورات الحاصلة على مستوى العالم، ولهذا تشكلت أزمة معنى الوجود في بنية الوجود ذاته "لان الوجود يسكن اللغة"¹

فإذا كانت لغة الميتافيزيقا التقليدية لا تفي بغرض الوجود، وإذا كانت لغة العلم والمنطق عاجزة عن الإحاطة والتعبير عن هذا الكائن الوجودي فأى لغة قادرة على الإفصاح عن هذا المكنون؟ وأي لغة قادرة على إمطة الغطاء عن هذا الكائن الذي توارى لأزمة طويلة و متعاقبة ومن سينجح في استخدام اللغة المناسبة التي تكشف عن المحتجب من الوجود؟

يقر هيدغر أن مهمة الكشف في غاية الصعوبة والتعقيد، و رغم ذلك فهناك فئة وحيدة جديرة على اختراق جدار الصمت الذي يلف الوجود أنهم الشعراء. ويبدو أن اللغة بوصفها أرقى وسائل اتصال الكائن المقدس ساعدت على انفتاح صورة المقدس الفلسفية على محتواه الشعري. و ذلك أن هيدغر لا ينظر إلى الشعر كونه قولاً أدبياً تحكمه الأوزان و القوافي وظروف الشاعر النفسية والاجتماعية بل هو سبيل لوصول الموجود لإدراك حضور الوجود.

إن الشعر باعتباره ممارسة كاشفة تعيد قراءة الوجود، تضم عدة خصائص تقرأ من جانب تأويلي ايبستيمولوجي بحث.

من بين خصائص اللغة الشعرية أنها تساءل العقل و تبحث عن الحكمة و تخلص الإنسان من التشيؤ الملموس و هذا ما دفع أدورنو Adorno وهو رائد المدرسة النقدية لفرانكفورت إلى اعتبار الشعر وسيلة نجاة من التناهي العقلي.

إن القاسم المشترك بين الشعر و العقل هو محبة الحكمة العقل يدرك الحكمة من زاوية السلطة التي يمارسها على الحواس و الوعي الباطني و الطبيعة بينما يعتبر الشعر

¹ - Heidegger, Lettre sur l'humanisme, in Q III et IV, op.cit, p.82

الحكمة قراءة لا متناهية لوجود لا متناه فالإمكانية العقلية ليست البعد الوحيد لوجودنا ولعل التجارب اليومية التي تمر على الإنسان قد يتمكن من السيطرة عليها وفهمها، وهنا يأتي دور التجربة في تجاوز العقل لأنها انفتاح على اللامحتمل وبهذا يصير الشعر مقوضا لنسق العقل الأداتي، وهو جوهر اللغة: "اللغة نفسها في معناها الجوهري شعر. ولكن لما كانت اللغة لغة ذلك الحدث، الذي ينكشف فيه أولا أمام الإنسان موجود بصفته موجودا، ولذلك فان الشعر، في أضيق معانيه، هو الأكثر أصالة في معناه الجوهري"¹.

وإذا كان الشعر يتجاوز العقل فإنه لا يخلو من النزعة الريبية التي لا تبحث عن تجاوز الشك و صولا إلى اليقين بل تعمل على تهديم اليقين و تكسير حواجزه المألوفة بهدف تأسيس مشروع إقامة جوهريّة. وما يميز هذه النزعة الظنية كذلك هو أنها لا تنطلق من الذات كأنا مستقل مفكر لإثبات تمركزها بعد ذلك كوجود محوري في العالم مثلما يرى ديكرت ولكنها تنطلق من مجال تتقاطع فيه الذوات وتتداخل فيما بينها فيمتزج الحاضر والغائب والمخاطب.

¹-مارتن هيدغر، أصل العمل الفني، أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، 2000ص98

المبحث الثاني: مقارنة هيدغر للشعر الهولدرليني:

كما ذكرنا سالفاً إن التنافر الذي كانت تظهره الميتافيزيقا الغربية اتجاه الشعر وعلاقته المخالفة والمضادة للعقل المنطقي، واعتباره ميداناً قريباً من الأدب و بعيداً عن الفلسفة وحقل يتعاطى مع الخيال أكثر من استتطاق العقل، جعل الفلاسفة يرفضون أية محاولة اقترب من هذا المجال الفني و هذا ابتداء من أفلاطون.

إلا أن هيدغر نظر إلى الأمور مخالفة وأصيلة، فيها الكثير من الجرأة والتفرد، فهو يرى أن الشعر هو تأسيس للوجود بواسطة الكلام، وبذلك رفض الميتافيزيقا الفلسفية واختار هذا الفن اللغوي المسمى بالشعر، الذي اعتبره فعل القول الأصلي أي هو العبور إلى الكينونة الذي يتم عن طريق اللغة بوصفها العنصر الدائم الذي يتكلم عن الوجود.

يقول هيدغر في مقدمة محاضراته الثلاث عن "ماهية اللغة": إن هدفه هو الدخول في تجربة مع اللغة وهذا لا يعني بطبيعة الحال الاعتناء بالتجارب كما يفعل علماء اللغة وإنما التنبه إلى علاقتنا باللغة.

ولا ملاذ لهيدغر من الاستعانة بالشعراء، ليس لأن علاقتهم باللغة متميزة بل لأنهم الأقدر من غيرهم على التعبير عنها، باعتبار الشعر التسمية التأسيسية للكائن ولجوهر الأشياء، والقصيدة الأروع في نظره هي التي لم تكتب بعد، واللغة الشعرية تكشف عن البعد الحقيقي لإقامة الكائن، فيجب التفكير في سكننا في اللغة. "الشعر ليس مجرد تفكير اعتباطي شارد ولا مجرد حومان التصور والتخيل حول ما هو غير واقعي. إن ما يعرضه الشعر باعتباره تصميمًا كاشفاً ويلقى به إلى الأمام نحو شرح الشكل، هو المنفتح، الذي يسمح بالحدوث بطريقة تجعل المنفتح هذا لا ينير و يرسل رنيناً إلا في وسط الموجود".¹

¹ - مارتين هيدغر: نداء الحقيقة، ترجمة د. عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة و نشر 1997، ص3.

وإذا كانت اللغة اليومية منهمة في تحقيق الأهداف العملية بالتبليغ والتواصل، فإن لغة الشعر هي أرقى وأسمى لأنها انفتاح الكائن على العالم.

والشعر في المعنى اليوناني هو الخلق والإبداع، والصورة الشعرية ترينا اللامرئي واللامكشوف من حياة الكائن بما إن المقدس مجهول ومخيف في آن واحد، فالوحيد الذي يستطيع مساءلة الوجود هو الشاعر لأنه منوط به البحث عن الخلاص، ولا ريب إذا اعتبر هيدغر الشعر "بمخاطرة جيدة" فهو يعتقد أن كل فكر يعرض معنى هو شعر، وأن كل شعر هو فكر وكلاهما ملك للآخر وهما يسيران معا.

وفي ظل الطي والنسيان الذي يعرفه الوجود، وفي ظل غياب الكينونة لم يبق إلا صوت الشعر العظيم، صوت الشعراء العظماء الذين يحيلوننا إلى البراءة الأصلية. إذ يرى هيدغر "أن الشعر معرفة تبحث داخل الكهف لتتير الإقامة الجوهرية في غوره والكهف في النهاية يكتسب دلالة ترميزية فهو في نهاية التأويل مسكن الكائن الحقيقي في العالم"¹.

لقد أسس هيدغر لعلاقة جديدة وأصيلة بين الوجود والشعر، تجسدت في قراءاته لشعر هولدرلين*² الذي توجه هيدغر بلقب شاعر الشعراء وهذا الاصطفاء ليس وليد الصدفة والمحاباة، وإنما كان نتاج لذلك التوافق والانسجام والأصالة التي جذبت انتباه هيدغر في شعر هولدرلين، إن كان قد درس عدة شعراء قبله.

إن لهذا الاختيار مبرراته سيما إذا ما تم التدقيق في أعمال هولدرلين وفي مساره الفكري، لقد عاش سبعين عاما التي عاشها تقاسمها الصفاء والجنون، ولكن جنون مبدع يتعالى على السماوات اليومية، وعن التنازلات التي تضمن الرخاء المادي مقابل بيع الذمم.

¹ مطاع صفدي كتابه المعرفي، الحد اثوي، في مجلة الفكر العربي، 1978-1979، ص8.

² * فريدريك هولدرلين (1843-1770) ولد في ألمانيا (LAUFEN) (لاوفن)، و توفي (بتونيغر) وهو شاعر ألماني كلاسيكي، أشهر أعماله رواية Hypérion غير المكتملة أصيب بمرض عقلي في أواخر حياته وظل منعزلا في برجه Höldirlin turn إلى أن مات.

لقد وجد هيدغر في شعر هولدرلين ذلك الانبعاث الجديد، خصوصاً إذا ما كان الجوار الجغرافي يجمعهما معاً، فكليهما ينحدر أصله من منحدرات "سوابيا" ذات الأصول النمساوية، وللمفارقة العجيبة فقد ارتبطت عائلة هولدرلين بعائلة هيدغر في بعض المصالح المادية والدينية، ولعل تقاسمهما للمذهب الكاثوليكي وطد هذه العلاقة وعزز اختيار هيدغر لهذا الشاعر.

إن اهتمام هيدغر بهولدرلين لم يكن سببه الجمالية الشعرية ولا من حيث الثراء اللغوي، لكنه الهاجس الأنطولوجي الذي أيقظ هذا الشاعر الذي سبق المفكرين بقصائده التي أمتعت الخيال وسعت إلى البحث عن مستقر يريح هذه الروح البشرية التائهة التي لم ينفذها لا المنطق ولا العلم ولا التقنية، روح وجدت في هذا الشاعر صفاء ونقاء.

هذا شاعر يتجاوز كل التصنيفات والتحديدات المألوفة ويفلت من التأطيرات النظرية، فلا يمكن حشره في خانة ضيقة لأنه يستعصى عن التصنيف، وسر ذلك أنه بنى شعراً وجودياً لم يفهمه الغرب الأوروبي إلا متأخراً، فإذا كان نيتشيه قد انقطع عن التأليف والكتابة في سنوات جنونه، فإن سنوات جنون هولدرلين هي قمة إبداعه حيث إن أعماله تجاوزت زمنه وتعالق على كل الأنماط الشعرية لتصل إلى مقاربة الجانب الأنطولوجي، إذن فسمت شعراً هولدرلين وجودية تخترق الحجب المعهودة. ورغم قلة منتوج هولدرلين الشعري والفكري إلا أن شهرته تجاوزت كل التوقعات حتى وإن انتظرت النصف الثاني من القرن العشرين.

لقد عاصر الشاعر عدة فلاسفة ومفكرين أمثال هيغل، وشيلنغ، وفيخته، وشيلر وربطته بهم علاقة صداقة. وكان لهذا دور حاسم في بروز أفكاره الفلسفية، حتى أن البعض انتقد اتجاهه، وهو الاستلهاً من الطبيعة، كما فعل شيلر Schiller الذي رأى في قصائد هولدرلين طغياناً للنزعة الذاتية أو العاطفية، إضافة إلى اكتسابها نوعاً من الروح

الفلسفية، وهذا لا ينبغي أن يكون لأن الشعر لا بد أن يبتعد عن الفلسفة نظرا لاختلاف جوهرهما.

يعتبر هولدرلين أن الشعر هو مفتاح المصالحة مع الذات، التي أصبحت تائهة وباحثة عن ما يربطها بالمقدس، هذا الأخير الذي لا يمكن أن يكون بارزا وحاضرا إلا في التراجيديا الإغريقية، فهذه الفترة هي أكثر الحقب اكتمالا ووضوحا وفيها يتضح ارتباط الإنسان بالطبيعة الأم، وفيها تجليات عن الإضاءة الحقيقية التي أنارت الوجود وجعلت علاقة الإنسان بالمقدس في أنقى وأرفع مستوياتها كما أشار باسكال Blaise Pascal في كتابه: " أفكار " « pensées » والذي يعتبر إن ميلاد كائن روحي " un être spirituel " يتطلب تجاوز الصيغة البيولوجية لإدراك الطبيعة الحقيقية للكائن.

ولعل أكثر ما جذب هيدغر في أعمال هولدرلين هو انتقادها الواضح لكل ما هو عقلائي، هذه العقلانية التي تشبعت روافدها، وتضاعفت تفاصيلها وامتدت رقعتها لتحبب كليا العقل عن إدراك الوجود هذا العقل الذي لا يجب أن يكون إلا أداة لتحقيق الوجود الحقيقي. فكيف له أن يتحول من أداة إلى غاية قصوى فهذا الخلل الذي بالذات هو الذي أقره هولدرلين في الكثير من أعماله مجسدا روح العودة إلى الأصل أي إلى التحام الإنسان بالطبيعة الأم.

فإذا كان هولدرلين قد خط أبرز أعماله في القرن الثامن عشر، فإن القرن العشرين هو الذي أخرجه إلى الوجود فصنف على أنه أكثر شعراء الرومانسية الذين عرفهم الألمان، ولكن ما رفع من قيمته وأخرجه من النسيان هو تناول هيدغر لمختلف أعماله واعتباره قامة من قامات الفكر الفلسفي.

إن القرن الثامن عشر هو قرن مفصلي في تاريخ الفلسفة الألمانية حيث عرف ظهور أعمال فلسفية كبرى ساهمت في بلورة الرؤيا الهولدرلينية للوجود، ومن أهمها كتاب كانط "نقد العقل الخالص"، فبعد تقويضه للميتافيزيقا الكلاسيكية التي قولبت الفكر وحددت

من مساحته، وجد هولدرين في أعمال كانط سيما التي نشرت ما بين 1780 و1790 إلهاما لتوجهه، حيث وجد نفسه في حقبة تاريخية انهارت فيها جميع النظريات الكبرى للوجود والفكر وشهدت ميلاد فكر جرمانى فيه من الأصالة والإبداع ما يجعل منه فكرا نموذجيا، هو الفكر الذي جعل من الاتجاه النقدي ديننا له، حيث إن الموروث الفكري الذي كان آنذاك قد جفت منابعه. ولذلك فإن الفتوحات الكانطية قد أرست نمطا فكريا نقديا جديد أثر في مفكري تلك الحقبة. كما اطلع هولدرين على أعمال فيخته¹ وقرأ كتاباته.

لقد وجد هيدغر في القول الشعري الهولدريني إعادة بلورة فكرة عاش معزولا عن الوجود، أنه تأسيس لمعرفة مختلفة تتجاوز البرهنة على الأشياء واستنباطها من مبادئ أولية ممتلئة، من خلال فعل مؤثر يدعو الوجود للمجيء إلى مكانه الصحيح.

وقد اعتبر هيدغر أن هولدرين معضلة كل اللغويين نظرا للغموض الذي يكشف عن أسلوبه أمام مسائل غير قابلة للحل ولا ربما هذا التعقيد هو ما جذب هيدغر الذي يماثل هولدرين في ميل للغموض والتعقيد. فهنا نجد لقاء شاعر أصيل وفيلسوف غير اعتيادي خارج عن المألوف والمتعارف عليه، فلا سبيل للدهشة ادن في اختيار هيدغر لهولدرين كأهم شاعر يستتطق الوجود ويعيد رسم معالمه ببناء فكري جديد يتخذ اللغة كوسيلة له.

اعتبر هولدرين الشعر تساؤلا مفتوحا، وقد استلهم من الطبيعة العناصر المقدسة أو الإشارات الإلهية. فالطبيعة ليست بالميتة أو الحيادية في نظره فهي تتاجيه وتكلمه، ولم يكن قادرا على تصوير عواطفه إلا عن طريق ربطهما بالطبيعة و كأنه يعيش تحت هيمنة الطبيعة، أو أن للقوى الطبيعية هي وحدها القادرة على إيقاظ روحه وإلهاب مشاعره.

¹- فيخته، (1762-1814) فيلسوف ألماني من مؤسسي الفلسفة المثالية الألمانية له رؤية خاصة عن طبيعة الوعي وفي الإدراك الذاتي.و يعتبر أبو القومية الألمانية.

وفي مخاطبة الطبيعة من بشيء عناصرها وسيلة ناجحة لتخليص الإنسان من التشيؤ وتجريده من قيود التناهي الجسدي وذلك بوضع الوجود الحسي الملموس موضع التساؤل والشك.

وفي نفس السياق يعتبر هيدغر أن الصمت ليس غياباً للغة بل تجسيدا لها. يثرثر الإنسان كثيراً في يقظته وأحلامه، ويكاد لا ينقطع عنه حتى عند غياب الحاجة إليه، وحتى عند الصمت نسمع أو نقرأ وببساطة نتكلم كثيراً لأن الكلام أمر طبيعي، ولكن الكلام الجدير بإظهار الكينونة والوصول إلى جوهرها ليس لغة التقنية التي تنشر سلطانها على جميع اللغات وتعتبر نفسها أداة التواصل الوحيدة. إن اللغة الجديرة بالاهتمام هي لغة الشعر و المتجسدة في هذه النقلة من التقني إلى الشعري.

ولعل أكبر دليل على ذلك أن قصيدة الشعر هي ما نلجأ إليه عند تأزم المواقف، لأن القارئ يجد نفسه فيها أمام حديث ينفذ إلى الأعماق ويعبر عنه بطريقة لافتة، وكان القصيدة نظمت له دون غيره من البشر.

هذا الشعر لا يستمد قوته من القافية أو البلاغة أو الصور الفنية الجميلة، بل ينقله إلى مرحلة أسمى فيها وضوح وانبلاج وفيها كشف لحقيقة الوجود، فالشاعر يبقى صاحب رؤية ينقلها للجميع، وهذا ما يعجز الفيلسوف عن قوله في ترسانة مفهوماتية وفي نظريات وانساق و يسهل على الشاعر إيصاله، لذلك لجأ كثير من الفلاسفة إلى الصور الشعرية.

لإيصال أفكارهم ونظرياتهم، ولعل ما أنجزه أفلاطون عندما غادر أرض الحس والمحسوس في رحلته إلى عالم المثل ولم يستطع مع ذلك التعبير عن تجربته الفكرية والمجردة الصورة لدليل على، فأسطورة الكهف هي صورة استخدمها أفلاطون بسبب عجز لغة الكلمات عن إيصال بعض الأفكار.

لا مناص إذن أن يلجأ فيلسوف كهيدغر إلى الشعراء و الشعر للتفكير في ماهية اللغة، فعلاقة هؤلاء باللغة علاقة مميزة خصوصا إذا تعلق الأمر بتعلق بهولدرلين وشعره. فالشعر بالنسبة لهيدغر ليس ضربا من ضروب الأدب بل له فسحة في سكننا الوجودي، فهو يخرج عن إطار التسلية و الخيال والتنميق اللغوي حتى وأن اعتبر جزءا من الأدب، هذا الأدب الذي لا يتم تقييمه إلا من خلال الواقع المعاش ويقع تحت سيطرة منظمي الصناعة الأدبية. فهيدغر يرفض هذا التضيق على الشعر إلى أن ينحصر في شكل صورة أدبية لا تكاد تذكر.

والأهم من ذلك أن الشعر مشكلة مطروحة في تاريخ الفلسفة الغربية، إذ طالما تحدثت الفلاسفة عن الشعراء ودورهم، هذا الدور الذي لا يقل أهمية عن دور الفيلسوف والذي استصغره الكثير من هؤلاء الفلاسفة منذ الفترة الإغريقية وعلى رأسهم أفلاطون الذي حد من شأن الشعراء وأبعدهم عن المدينة الفاضلة خلافا للمرحلة ما قبل السقراطية، أين احتل الشعر والشعراء مكانة مرموقة فيها هو بارميندس مثلا ينجز أعماله بلغة شعرية.

وإذا كانت نظرة أفلاطون للشعر والشعراء اقصائية، فإن أرسطو كان أكثر اعتدالا عندما ترك للشاعر فضاءه الذي يعبر من خلاله عن ما يريد واعتبره ناقلا أميناً للواقع بفضل خياله الواسع، فابتعد بهذا أرسطو عن نظرة أفلاطون الذي انتقد الشعر في أساسه معتبرا إياه من طبيعة حدسية ولا يصلح إلا في مجال تقليد الأفكار، وبالتالي إذا سمحنا للشعر بالتواجد فلن يكون إلا بصورة استعارية و محدودة.

وحتى في العصر الوسيط ارتبط القول الشعري بالخطاب العقلي، فجل المفكرين السولاسكتيين لم يعتبروا الشعر سوى جزء مغمور لا أهمية له في المجال المنطقي، ولذلك حددوا من دوره وهمشوه، وعمقوا الصراع والتضاد الموجود بين الفكر والشعر إلى درجة

ترجيح كفة المفكر على حساب الشاعر، و لم يعد يذكر الشعر إلا من زاوية تشكيكية. ومع ذلك حاول الكثير من الفلاسفة في فترات فلسفية لاحقة من التعديل في هذا الرأي متخذين موقفا حياديا اتجاه الشعر والشعراء والتأكيد على عمق ورفعة القول الشعري.

فهيدغر مثلا اعتبر الشعر صورة للانبثاق الفلسفي فهو يملك الشكل والمحتوى وهو يستحوذ على الكثير من الذاتية الفعالة، ويمكن الإشارة هنا إلى أن وجهة نظر هيدغر هذه هي استمرار تاريخي للرأي الأرسطي، فهو يعتبر الفن والدين والفلسفة مظاهرا مختلفة لفكر واحد، ويضيف فكرة أن الشعر هو اختزال لكل أنواع الفنون، وقد يكون صورة للفكر الإنساني، أنه وحدة عضوية لا متناهية صيغتها الحرية.

إن النظرة الهيدغرية للشعر لم تكن حاضرة بقوة في المراحل الفلسفية الأولى من حياة هذا الفيلسوف حتى وإن تعلق الأمر بكتابه المحوري " الوجود والزمن"، واتضحت وبصفة جلية في آخر أعماله التي يدور مجملها حول الكلام La parole والشعر، وهذا بالتوجه إلى أعمال هولدرلين التي وجد فيها خلفية مناسبة للتأسيس لنظرة غير مسبوقة للشعر واهتمام هيدغر بالإرث الإغريقي قبل السقراطي ما هو إلا توطئة لتناول أعمال هولدرلين.

ولعل أكثر ما جعل هيدغر يتناول أعمال هولدرلين بالشرح والتمحيص والتأويل هي المواضيع التي تناولها هذا الشاعر في مختلف أشعاره، سيما أنها ظهرت في عصر بدأت بذور التقنية تتمظهر، وفي مرحلة توقف فيها التفكير وانطبق عليها الوصف الذي زكاه هولدرلين عندما اعتبرها مرحلة الأزمة أو الانهيار الكارثي الذي أصبح فيه الوجود طي النسيان. وإنها فترة يميزها طغيان اللغة التقنية الحديثة التي استوطنت في أركان الواقع البشري وجمدت حركته من خلال المفارقات والأغاليظ التي انتابت هذه اللغة بكل نشاطاتها، والتي أسست أصلا للحدث كما يقول ذلك هيدغر، وأعطت صورة مختزلة للعالم.

ولكن الصورة للعالم هذه Weltbild لا تكشف في حقيقة العالم الذي لا يمكن أن يلخص ويحول إلى مجرد صورة مهيمنة على كل ما هو إنتاج أدبي وفكري، وهذه الهيمنة واضحة في الحضور المتزايد للصورة في شاشة السينما مثلاً.

«في خضم هذا التزييف الضارب للواقع وفي زمن اللغات اللاشعرية Langage Apoétique فان الشعر يعد ذلك الجرس الذي يقرع بنغم قد يؤثر على إيقاعه ابسط الأشياء كسقوط الثلج مثلاً.»¹.

لذلك رأى هولدرلين في أعماله المتأخرة أن الكلمة حتى و إن كانت نثراً فهي في حقيقة الأمر ذات بعد شعري.

"من اجل أشياء هينة لا متناغمة

بفعل الثلج مثل دقات الجرس تقرع للعشاء".²

في أبيات كهذه يظهر لنا أن الانكشاف أو الإنارة يحتاج إلى زخات ثلج على جرس، ما يعني أنه يجب خلخلة هذه اللغة لتكشف عن مكنوناتها ولتتير هذا الوجود « إن الشعر بقيمه ومكانته اللائقة يكشف فوراً عن الإنارة وبينير الأشعار الأخرى لهذا يولد لدينا انطباع واحد و هو عند قراءتنا للإشعار نعتقد أننا استوعبناها، وفهمنا مقصدها ومن المستحسن تصديق ذلك»³.

إن الموجود يفقد معناه ويضيع في الوجود، ولتدارك ذلك يستحسن بل يجب اللجوء إلى الكتابة التي هي إحدى أنجح الطرق لكشف الحجب، طغيان الصورة بكل مظاهرها ما أثر على الإنتاج الأدبي و بالتالي أوغل الوجود في ظلام دائم لذلك نجد الفيلسوف فنتشتاين Wittgenstein يقر على أننا مستبعدون من طرف الصورة ولا يمكننا التملص منها لأنها صارت بكل بساطة لغتنا وأضحت تفرض نفسها علينا بصورة نمطية.

¹ – Heidegger , Approche de Hölderlin , p.7

² -Ibid.p.8

و بهذا نفهم العالم على أنه صورة والوجود على أنه موجود *l'être comme étant* فكيف يمكن إذن للغة أن تتحرر من سلطة الصورة لتحافظ على صفائها باعتبارها لغة الوجود ؟ وفي هذا السياق، يعتبر هيدغر هولدرلين هو الشاعر الذي يجب اللجوء إليه وهو الذي يمكنه أن ينصت للوجود، لأنه استطاع أن يحول الاستماع إلى نداء استغاثة كما أنه يملك القدرة على الاستماع والإجابة لأنه شعره خالص فيه نقاء ووضوح الرؤية، انه ببساطة الشاعر المطلق لأنه يؤسس لجوهر الشعر *Essence de la poésie* وهذا ما يجعله مختلفا عن معاصريه وسابقيه في نظر هيدغر.

فالمفكر هو المخول لكشف الوجود، والشاعر هو من يميظ اللثام عن المقدس، فهولدرلين بتأملاته وبفكره الثاقب والمخترق لظلام الميتافيزيقا فهو من تأمل في "الليلة المقدسة" أين شهد انسحاب الآلهة¹.

¹ -Jean Marie Valysse, Le vocabulaire de Heidegger, éclipse. 2000 p45.

³ -Ibid, p.8

المبحث الثالث: الزمانية و ماهية الشعر.

إن الزمن التاريخي temporalite الذي يتناوله هولدرلين في أشعاره وعاش تجاربه بكل تفاصيلها، يماثل الحقيقة المعاصرة والتي لا زالت تمثل نداء الاستغاثة، فالأزمة لم يتم تجاوزها بعد في ظل طغيان التقنية والمعلومات التي تشكل خطراً محدقاً يحول دون الوصول إلى « لغز جوهره غير المفكر فيه مانعا الإنسان من الرجوع إلى الانجلاء الأصلي و الإنصات إلى نداء الحقيقة الأصلية »¹.

إن اعتبار التقنية هي لغة الوجود المعاصر جعل هيدغر يعتبر هولدرلين الوحيد من لبي نداء الاستغاثة، وهو من كان له الفضل في التقاط تلك الإيحاءات اللامرئية بالنسبة للمنطق و العلم و الذي سجل غياب الآلهة، فانسحاب المقدس بالنسبة لهولدرلين هو غياب الآلهة والذي يعني استحضار الإنسان الذي اعتبره شرطاً أساسياً لوحدة العالم والتاريخ البشري.

إن هيدغر و هولدرلين لا يختلفان كثيراً في فهم الزمانية فهيدغر يقول أن الشاعر لا يوجد خارج الزمن ويؤكد أن ماهية الشعر تنتمي إلى زمان محدد. كما يعتبر أن ما يميز الزمان الحالي هو التعاسة لأنه زمان الآلهة التي اختفت والإله الذي لم يأت بعد ويقصد بالآلهة التي اختفت آلهة اليونان ويصرح هيدغر في كتابه " ما الفلسفة؟" و"ما الميتافيزيقا؟" بأن ماهية الشعر التي يؤسسها هي ماهية تاريخية إلى أقصى حد فهي ماهية تتنبأ بزمن تاريخي، وهذا التنبؤ هو ما يشكل الماهية الجوهرية الوحيدة للشعر، هذه الماهية التنبؤية للشعر هي التي تجعل الشاعر يقف بثبات فيكون ذلك المتوحد الأعلى الذي يجعل مصيره الخاص شيئاً منفرداً وبذلك يضع الحقيقة و ينشرها بين الناس.

وهذا ما يقوله هولدرلين في قصيدة " خبز و نبيذ " "Brot und Wien":

¹ - Ibid., p.115

من الضلالة والنعاس

يأتي المدد

ومن الشقاوة والظلام

يأتي الأبد ومن البطون القاسيات

تأتي البطولة

تأتي كفاءة الخالدين وفي الرعود

وأنا أفضل ذا النعاس على انفراد الانتظار

و من غير أصحاب فلا ادري ما أقول و افعل؟

ماذا يفيد الزمن الحقير ؟

فكأنما الشعراء كهان " لباخوس* " العظيم

ينتقلون من البلاد إلى البلاد خلال ليلية أقدس².

وفي هذا إشارة إلى عناء الشاعر و بوهيمته التي تحاكي التراجيديا الإغريقية،

فالموت التراجيدي للبطل الإغريقي هو تجسيد لهذه السخرية من الغد الإنساني حيث أن

تضحية البطل من أجل المصير يظهر تناهي الزمان في التناهي التراجيدي للإنسان¹.

وغياب الآلهة هو العلامة الفارقة لهذا الزمان الذي لا يقاس بالزمان الخطي

التعاقبين، أي بتعاقب السنين ويؤسس لقدم الزمان المقدس كبداية لتاريخ آخر.

إن الزمن الذي يشهد استغاثة الوجود هو زمن ظلامي وضع أوزاره بغياب الآلهة.

وفي هذا تجسيد للوجود نفسه، وفي هذه المرحلة تظهر قيمة الشاعر لأنه الوحيد القادر على

اقتفاء آثار الآلهة وإيجاد إشارتها في ظل نسيان الوجود، ولإنارة الوجود يقترح هيدغر إيجاد

خلفية أنطولوجية مناسبة والتي سيضطلع الشاعر بالبحث عنها و إيجادها وهو الساعي

للبحث عن الوجود والإعداد لعودة الآلهة الهاربة، هذا هو المعنى

¹ - باخوس اوديوننسوس، في الميثولوجيا الرومانية هو اله الخمر و المرح وهو ابن زيوس. كبير الالهة.

² - فريدريك هولدرلين مختارات شعرية: ترجمة حسن حلمي، تقديم : محمد بنيس دار توبقال للنشر 2009 ص28 .

الحقيقي ومهمة الشعراء في زمن الضياع. ويعد هولدرلين أحد هؤلاء، وينطلق هيدغر من افتراض أول وهو اعتبار الآلهة مسكن للدازين ينقذه من طيات النسيان، ولعل الجانب الكاثوليكي من عقيدة هيدغر يجعله يعتبر التكفير عن الخطيئة هو مغزى خلق الإنسان وهو الرابط الروحي والنفسي الوحيد المبرر لوجوده، إلا أنه يوافق هولدرلين الذي يوحى في أشعاره أن هذا التكفير يكون في ظل غياب الآلهة، "فالنهر دائم الجريان لن يعود أبداً إلى منبعه وكذلك لن يعود إلى الظهور في حياة الكائن لذلك تستمر حياة التشرد والعذاب"¹. و"هولدرلين لا يحكم على العقيدة المسيحية وعلاقة الأشخاص بالكنائس، ولكن عيب الآلهة أنها لم تجمع الإنسان والأشياء، بهروب الآلهة انطفأت الإلهية من تاريخ الإنسانية"².

و بهذا ضاع الكائن وأصبح وجوده بدون أساس، يعيش في تمزق (Abgrund)، ويضيف هيدغر أننا عندما نعيش في زمن غياب الآلهة تضيع كل الكائنات ولا تبقى إلا آثار قليلة أو خيوط رقيقة تربطنا بهذه الكينونة، ولا يملك سر الوصول إليها إلا الشعراء الذين يملكون صفاء الفطرة ووضوح الرؤيا حيث تركت الآلهة إشارات مبهمة مشفرة يستعصى فك رموزها إلا على الشاعر الأصيل، والشاعر هو الوحيد الذي يصل إلى خبايا الآثار التي تركتها الآلهة مبعثرة ومختفية، "أن تكون شاعرا وقت الأزمة هي أن تكون يقظا ومنتبها لآثار الآلهة الهاربة"³.

ولكي يبلغ الشاعر هذا المقام الكينوني البالغ في الرفعة عليه أن يعبر عن جوهر الشعر Dichtung، ولن نصل نحن إلى فهم كل هذا إذا لم نحسن الإنصات لأقوال الشعراء، إذ "علينا حسن الإنصات إلى الأقوال الشعرية التي يعبر عنها هؤلاء الشعراء."

¹ - عمر مهيبيل إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، منشورات المركز الثقافي العربي الدار العربية للعلوم 2005 ص 197.

² - Heidegger: Les chemins qui mènent nulle part, p324.

³ - Ibid p327

ففي إحدى قصائده يقول هولدرلين:
 غير انه حري، تحت رحمة عواصف الإله
 نحن معشر الشعراء، أن نبقى واقفين
 عاري الرؤوس
 وأن نمسك بأيدينا شعاع الأب اللامع.
 بل الأب نفسه، وأن نهدي الشعب
 هذه الهبة السماوية محتجبة في القصيد"¹.

وفي هذا نداء للشعراء الذين وحدهم يدركون ضوء الوجود إنهم في يقظة الكينونة بينما الآخرون نائمون مغيبون لا يكادون يرون شيئاً، وهنا تخصيص للشعراء ودورهم اريادي في إيقاظ الوجود الراكد وإضاءة العتمة. فالشاعر يستتطق الوجود لذلك رأى هولدرلين أن الكينونة الدائمة يؤسس لها الشعراء. ولهذا يعتبر هيدغر أن هولدرلين وصل إلى قلب الوجود بواسطة تفكيره الشعري وفي هذا تحول من الفكر إلى شعرنة الوجود وفي رسالة كتبها هولدرلين لصديقه Boehendorf. عام 1802 يقول "هنا أمام نافذة ضوء فلسفي يغمرنى فرحاً و يا ليتني لا أنسى كيف وصلت إلى هنا".
 إن التفكير الشعري لهولدرلين Dichtendes denken أيقظ الحس الوجودي للميتافيزيقا الغربية.

في قصيدته "ولاء شيطاني" يقول هولدرلين:
 "من أعماق قلبي أمقت ارتباط الطغاة برجال الدين
 و لم أكن أزدرى أكثر العبقرى الذي يجعل من نفسه
 سافلاً بارتباطه بهم"²

¹ - Voir , Heidegger , Approche de Hölderlin , op.cit p56.

² -Poetes d' Aujourd'hui – Hölderlin – leonhard- rovine Ed Seghers – p 169.

وفى هذا إشارة إلى مقت كل صلة برجال الدين. وبالتالي تقويض موروث التفكير الديني الذي يوصلنا حتما إلى إدراك أن الإله ليس مسكنا للدازين لأنه اله مغيب هارب. واستنادا لهذا الموقف يرى هيدغر أن الإله لا يمكن أن يكون مسكنا للدازين لأن بناء مثل هذا المسكن يستلزم الايمان وهو لا يتوفر لدى الدازين الذي لا يريد أصلا أن يكون مؤمنا. إذ انه لو كان كذلك لأغلق البحث عن الكينونة كما يغلق الصانع على ورشته. وإذا كان الإله لا يملك القدرة على إسكان الدازين فيمكن للأرض أن تكون ملاذا له. و إذا بدأنا بهذا الافتراض فإننا سنصل حتما إلى هذه الأرض التي عمرها الإنسان واستأنس فيها. ولكن هذا الاستئناس لم يحقق السعادة إلا في الظاهر لأنه طور ما يسمى بالتقنية وهذه الأخيرة هي دليل على سيطرة الإنسان على الطبيعة ولكن بالنسبة لهيدغر لا يجب فصل التقنية عن ماهيتها وإذا قاربنا المسألة فإننا نجد أن التقنية الحالية تختلف عن ماهيتها الحقيقية وهنا يستجد هيدغر باللغة ويعطينا مثال الشجرة. فماهية الشجرة تختلف عن الشجرة ذاتها كذلك المثل بالنسبة للتقنية. وكلمة تقنية ترجع إلى أصول يونانية. وهي لا تعني استعمال الأدوات وإنما هي جزء من البوبيسي *poetique*. فهي ليست الصنع وإنما الانكشاف" إن ماهية التقنية دافع للانكشاف وبما هو قدر للانكشاف هو بدون شك ماهية التقنية". فماهية التقنية ليست شيئا تقنيا تحول بفعل الاستعمال الخاطئ إلى سلطة ميتافيزيقية تتحرك داخل ميكانيزم العلم الحديث. لقد حقق الإنسان حريته في عالم التقنية الحديثة بعد أن' احتجب الوجود نهائيا. وأصبحت التقنية هي اللحظة الأخيرة للميتافيزيقا الغربية ولإرادة العقلنة والسيطرة على الموجود سيطرة مطلقة وتسخيروه في مجالات غير محدودة تمنح التقنية فهما ميتافيزيقيا للوجود استجابة لنداء المخزون والإنتاج وتحت تأثير الاستفسار والتدمير الذي يمثل الإرادة التي تؤلف جوهر التقنية الغربية الحديثة. و يعتبر هيدغر أن التقنية عائدة للإغريق لكن "التيخي" أو التيكني الإغريقي يختلف عن المعاصر. فالإغريق جمعوا بين الانكشاف والإنتاج وبين الحقيقة والتقنية. فيتحقق النقاء الانكشاف بماهية التقنية. و لقد نجحت اللغة الإغريقية في

استقصاء أصل المفاهيم وماهية الأشياء وهي مهمة صعبة ينبه إلى خطورتها لما تفهم اللغة في غير مواضيعها. وتخاطب الإغريق بلغة الشعر. فخاطبوا العالم مخاطبة جمالية و فهموا أبعاده من داخل رؤيتهم الفنية ولما انسحب الشعري هيمنت التقنية وامت السيطرة الأدوات على المخزون الطاقى للأرض فلم يعد سؤال الوجود ممكنا في ظل سطو الموجود. واكتملت معالم الانسحاب هذه مع ميتافيزيقا الحداثة خاصة في لحظة اكتمال خطابها في التقنية. وكان نهاية لميتافيزيقا الوجود. إذ وجد الدازاين نفسه محاصرا بمظاهر ألغت وجوده وتسببت في اغتراب الإنسان عن مصيره. فهل حقيقة و مع هذا الضياع التقني الطامس للوجود يمكن للدازاين أن يسكن الأرض؟ إذ لا يمكن اعتبار بالأرض مسكنا للدازاين. لهذا اعتبر هيدغر أن الميتافيزيقا في الكشف عن ماهية التقنية وفي العودة إلى الشعر. شعر هولدرلين بالذات. فالمطلع على شعره يلاحظ ارتباطه بالأرض الأم. الأرض التي تحرر الأرض التي تحتضن. فكل أناشيده هي نداء للوطن بعيدا عن سيطرة التقنية ما يتعلق بالاستتارة الأنطولوجية التي تعترى الكائن عندما تحتضنه الأرض الأم.

المبحث الرابع: علاقة الجوار بين الفكر و الشعر.

إذا كانت وظيفة العقل قد حددتها الفلسفات المتعددة وأبرزها تخليص الإنسان من قيود التناهي الجسدي وذلك بالتشكيك في الملموس والحسي، فهل يأخذ الشعر نفس الاتجاه؟ وأين تتمثل وظيفة الشعر الجوهرية؟

لقد وضع هيدغر بصمته الخاصة في هذا الموضوع، وأفرد للشعر مساحة ليست بالضيقة. والفكر بالنسبة إليه هو تاريخي وشعري في آن واحد. فالكائن بالنسبة لهيدغر تاريخي لا لأنه يعي التعاقب الزمني، ولكل انه الكائن المفكر الذي يعي وجوده بأبعاده المختلفة" فالدازين ليس بالمؤقت المرتبط بالزمان و التاريخ، ولكن لا يمكن إن يكون تاريخاً و موجوداً إلا لأنه حامل للهم الوجودي من ولادته إلى نهايته.¹

ولقد عكف هيدغر على بناء تفسير فلسفي جديد فالعقل لم يعد عنده تلك الترسانة المفهومية التي يحركها المنطق و اللغة العلمية، بل هو الفهم الذي يوصل الإنسان إلى إدراك الوجود. فعلى العقل أن يؤسس خطاباً تكون الكلمة وسيلته وغايته في آن واحد. كلمة قادرة على مسألة الميتافيزيقا واختراق هيكلها. ولذلك لأن سلك الطريق المناسب هو الصواب. ويعتبر هيدغر محاورة الشعراء أي الإنصات لشعرهم هي السبيل الوحيد لكشف التحجب عن الوجود الإنصات للشعراء ومحاورتهم، لأن التجاوب بين الفكر و الشعر مبني على القول أو الكلمة.

و الكلمة معطاءة فهي التي تجود علينا بالإيضاح والكشف. في حين الاعتماد على الميتافيزيقا الكلاسيكية. جعل الكائن يعيش تجربة جرتة إلى أخطار متعددة وجردته من الحماية والنجاة.

¹– Jean-Marie, Valysse. Le vocabulaire de Heidegger, p.27.

لم يكن سهلا على الفلسفة الإفلات من مقولة الذات و التفكير خارج هيكل أفلاطون و بعيدا عن سلطة ديكاريت التحليلية و التملص من قيود أرسطو المنطقية. لقد كانت ولادة عسيرة تلك التي حولت الفكر من منطلق خارج الذات إلى فكر متمركز حول الذات، ولكن الذات التي ينسجها هيدغر بطريقته الخاصة ويربطها بعناصرها ليحررها من خيارات تدميرية.

فالشعر هو خيار أنطولوجي تجسد خاصة في شعر هولدرلين الذي اطر هذا الخيار بالعودة إلى المنابع الإغريقية. وأحيا التراجيدية التي غمرتها صراعات الانتماء إلى الأصل الإغريقي. هذه التراجيدية التي تجسد محاوره الفكر للشعر. فان النجاة من الخطر الأعظم الذي الغرب الأوروبي. لقد وجد هيدغر في هولدرلين فسحة في كسر انغلاق الدور الميتافيزيقي وتقويض المنزع الذاتي التقني وممارسة تجربة جديدة في الفكر.

إن هيمنة الطقوس التقنية الميتافيزيقية على الفكر وضعت المصير الإنساني في اخطر مراحله فإذا كان ميلاد الفلسفة قد تحقق مع الشعراء الأوائل فان نهايتها و بعثها من جديد يحتاج إلى شعراء قادرين على الخروج بها من بدئها الميتافيزيقي " إن الشعر لا حيز له إلا عندما يكون الكاتب معنيا كذات، إن حقيقة الشعر إنما تأتي بقدر ما لا ينهض بيانها إلا في الموضوعية ولا في الذاتية".¹

لقد قوض الشعر الأساس المنطقي للذاتية وبدأت تظهر ملامح تجربة عميقة تنهض بسؤال الوجود دون الانفتاح على تجربة الذات و الموضوع الخاصة بفلسفة الوعي فالفلسفة الآن بين يدي الشعر الذي هو البرهان الوحيد على إخراجها من منزعها الذاتي.

و دعوة هيدغر إلى التأمل في انجازات المفكرين الإغريق و الإنصات إليها بأذن إغريقية هي دعوة منه إلى الاهتمام بالكلمة وإعادة النظر في علاقتها باللغة.

¹ – Heidegger .Introduction a la métaphysique, op.cit., p176.

إن الحوار القائم بين الفكر والشعر لا يعني مزجا بينهما أو إيجاد نظرة توافقية تنتج فكرا جديدا وإنما المعنى هو إقامة حوار بينهما لإظهار وجود اللغة وماهيتها. بهذه الطريقة يمكن للغة أن تتجاوز حدود الفكر وتتحول إلى فكر أصيل حول الوجود. و حاول هولدرلين تقريب هذه الفكرة عندما صرح بأنه "يمكن للشاعر و المفكر أن يتقاربا في أكثر الكلمة اختلافا"¹.

لقد وجد هيدغر المعادلة المناسبة لإظهار فكرته وهي الشعر الهولدرليني والفكر الإغريقي ما قبل السقراطي، إن هذه الصيغة الثنائية كفيلة بتوحيد الفكر و الشعر ولكن السؤال يبقى كيف السبيل إلى الجمع بين هذان الطرفين؟

يرى هيدغر إن الشعر هو الذي يطوع اللغة ويجعلها ممكنة لأنه يحتكم على ماهيتها، فظهور اللغة وانسحابها عاملان مرتبطان ويخضعان لسلطة الشعر وعلى اللغة أن تجتهد للحفاظ على الروح الشعرية.

ولا يخفى على احد أن تجربة هولدرلين مشدودة إلى الميتافيزيقا إذ صبغت الشعر باستعارة انطولوجية ترفع وجود الإنسان على الأرض، هذه الاستعارة ساهم هيدغر في تأسيس وعي فلسفي ها وعلى نحو هيا لقصيدة هولدرلين الالتقاء بالفكر. إذ انعكس هذا على مسار الفلسفة وعلى موضوعها. ففي إحدى قصائده "أباريق الشعراء" يقول هولدرلين:

أباريق مقدسة

تحفظ خمر الحياة

فيها تحفظ روح البطولة

لكن أن تحطم هذه الروح الفتية

هذه الروح تملأ، ذلك الإبريق

¹ – Heidegger ou l'expérience de la pensée présentée par René Scherer. Lothar Kelkel Ed seghers Paris .1973 . p137

الذي يحاول احتوائها ؟¹

وهذه دعوة للشعراء للمخاطرة و تكسير الموروث المتهرئ وإعادة البطولة الأصلية التي توقظ ما حولها. فهودرلين جمع بين البدء و النهاية وأعلى ذاته كأساس لكل قول فلسفي فولدت الفلسفة بمولد أول شاعر فكر في حقيقة الوجود وانعكست في قصيدته حقيقة العمل الفني وانكشف للوجود.

و الملاحظ أن رجوع هولدرلين إلى سوافيا وهي موطنه الأصلي على جبال الألب تكشف مدى ارتباطه بها لأنهما المستقر المادي الذي ينير العودة. ولا تعني العودة هنا الرجوع المادي بقدر ما تتعلق بتلك الاستتارة الأنطولوجية و التي تعتري الكائن عندما تحتضنه الأرض الأم.

وان كانت الأرض قد غزتها التقنية وشوهت ماهيتها فان الأرض التي يعود إليها هودرلين ارض لا تزال تحتفظ بأصالتها ففي إحدى قصائده يقول:

في قلب جبال الألب

ليلة مقمرة و مصدر للشعر والفرحة

فرحة تغمر ذلك النل السعيد²

ففي هذا القول الشعري تعبير عن ذلك الانسجام الذي ينتابه الشاعر في أحضان وطنه الأم، وفي هذا المعنى رجوع إلى مهد الحضارة وأصالة الوجود في الفترة الإغريقية الأولى، تبقى عبورا ضروريا لأدراك معنى الوجود، والوطن ليس المعين المادي والحسي إنما وطن فيه إدراك حقيقي لمعاني الكينونة.

لقد ألف هولدرلين أشعار الوطن و هو بعيد عنه، إلا أن ذلك يكشف أن العودة هي سر الانكشاف الوجودي. فالفكرة التي يذكرها هودرلين هي العثور على ذات ضائعة، امتدت في الوجود بفضل ذلك النداء الأصيل للوطن، وفرحة العودة هنا هي كشف للوضوح الذي

¹ - Heidegger Approche de Hölderlin ,op,cit. p 42

1-In , Heidegger, Approche de Hölderlin,p 42.

نتحدث عنه " الأعالى الفضية". فالكون الفضى دلالة على اللمعان و الوضوح و ضرورة الرؤيا و الانفتاح الواضح على الوجود، ففي هذا الشعر تشابك لمعان ثلاثة، هي الفرح والوضوح والاتساع وهو الرهان الذى يقترحه هيدغر لأدراك الوجود، فلا يمكن فصل الشعر على الفكر لتحقيق هذا الغرض.

إن الحوار بين الفكر و الشعر عمل ذا باع طويل و لا يمكن معرفة بدايته الحقيقية بعد، وكل حوار من هذا الطراز إنما يهدف إلى وضع الخطوات الأولى أمام الإدراك الحقيقى للوجود.

وأشعار هولدرلين هي إذن في أغلبها نداء للعودة الأصلية و الأصيلة للوجود الحقيقى، في خضم عصر يمجد العقل و يقدر التقنية حاملا أو متجاهلا للأخطار الناتجة عن ذلك، وفي هذا الإطار يؤكد أدورنو Adorno¹ بالقول أن الاهتمام بالشعر هو منطقة نجاة من التناهي العقلي ومن تسلط الذات العاقلة على الطبيعة، ليتحقق الوعد بالسعادة، والحقيقة الذاتية غير المزيفة، تلك الحقيقة الأصلية التي تعبر عن جوهر الوجود، فلا بد للشاعر حسب أدورنو من أن يكتب وهو ممثلٌ بالواقع التاريخي، وان يتحسس الصوت الذي يتزوج فيه العذاب والحلم الذي يضعه نصب عينيه، ولا بد أن يغوص في ذاتيته الفردية ليتمكن من تجاوز هذه الذاتية، ويشارك مشاركة موضوعية في لغة المجموع وفيما هو إنساني والذي لم يتشوه بعد ولا يتم ذلك إلا بالتعبير الأصيل عن الواقع الاجتماعى الممزق وهو واقع متطرف و في العقلانية الفاسدة التي لا يتم درؤها إلا بتطرف بواسطة الفن في العقلانية والإمعان في التجريد و البعد عن الطبيعة للاقتراب من الطبيعة.

أن للشعر خاصية فريدة وهي القدرة على توليد الرؤيا الاستبصارية والاستشراقية، بدءا من تفجير لغة الكائن الإنسانى المهووس بالاستكشاف وبالنزعة التشكيكية التي تتخطى نزعة ديكارت العقلانية التي لا تعترف بالوجود إلا إذا تخطى مرحلة الشك، بمعنى أن الوجود

¹ - تيودور أدورنو فيلسوف ألماني(1903-1969)رائد من رواد المدرسة النقدية لفرانكفورت من أبرز مفكري القرن 20. أثرت كتبه على ما يسمى اليسار الأوروبى الجديد، أهم مؤلفاته "جدل التنوير"، "الدعاية"، "صناعة الثقافة".

مرتبط بالتفكير لأن الكائن في الكوجيتو هو نتيجة عملية التفكير، ولقد حطم هيدغر هذا الأخير وقوض مفهومه الذي تغلغل طويلا في التركيبية الفكرية للمسار الميتافيزيقي إن الشعر خلافا للعقل الواضح الذي خطط لهندسة ديكرت هو إيقاظ للنزعة الرببية التي تهشم اليقين وتكسر حواجزه المألوفة بهدف تأسيس مشروع إقامة جوهرية ورغم كثرة الشعراء ذوي الأعمال الخالدة ذات الإشعاع العالمي كهوميروس، سوفوكليس فرجيل ودانتي، شكسبير وغوته إلا أن أعمالهم لم تعكس بالنسبة لهيدغر جوهر الشعر فوجد ضالته في شاعر مغمور أمضى نصف عمره مجنونا ولكن "تم اختيار هولدرلين ليس لأن أعماله حملت جوهر للشعر كالأعمال الأخرى، لكنه هو الوحيد من حمل هم شعرنة الشعر". فهو بلا منازع شاعر الشعراء، فهو يمثل الشاعر الذي يخاطب الفكر والوجود معا. وتصادف خطابه هذا مع فترة انسحاب الآلهة وغيابها. كما يقول هيدغر. هذه الآلهة لم تختفي وحسب. بل انسحابها كان سببا في انطفاء القداسة في تاريخ الإنسانية.

وفي هذه الأوقات الرهيبة التي يشوبها الضياع والقلق و النسيان تظهر مهمة الشاعر المقدسة. وإذا كان هولدرلين هو من أخذ الصدارة في تصنيف هيدغر بالنسبة لشعراء الوجود. فإنه لم يكن الوحيد في هذا المجال. إذ تحدث هيدغر عن شاعر آخر استطاع أن يربط الشعر بالفكر انه الشاعر ماريا رايلكه الذي يعتبره هيدغر معلما شعريا تجاوز الزمان و التاريخ. إنه " شاعر الأزمنة الصعبة وشاعر الأزمات وهو من تتوفر فيه صفات الكاشف للعتمة". لقد ألف رايلكه دواوين كثيرة، أشهرها "مرثيات دوينو" , Sonette a Orphee , Sonnets an orphey وعلى هذه الطريق عبر رايلكه بطريقة دقيقة عن خواء و فقر المرحلة، إنها مرحلة هزيلة ليس لأن الآلهة قد رحلت ولكن لأن الفانون يجهلون ذواتهم الغائبة وهم يجهلون أيضا جوهر وجودهم، وفي هذا الصدد يقول ريلكه في ديوان Sonnette an 62 Orphy الجزء الأول:

العالم سريع
 كأشكال الغمام
 كل شيء منجز
 يعود إلى أقدم الأقدمين
 فوق كل التغيرات و المسارات
 أوسع و أكثر جرأة
 الإله الممسك بأوتارك
 لا احد يهتم بجراحك
 الحب غير ملقن
 وما يبعدنا عن الموت
 غير مباح
 نشيد الأرض يوطد الوثاق¹.

وكما يوضح هيدغر فإن هذه القصيدة تسيطر وتبين مصير المقدس الذي صار غائبا ومجهولا، والمشكلة كما يرى هو أننا مازلنا نعتبر أن المقدس هو كل ما له صلة باللاهوت. و المطلق، أو أن الطريق إلى المقدس يبقى مجهولا، وكيفية إيجاد هذا الأثر والطريق يبقى مجهولا.

"المرحلة ضيقة لأن جوهر الألم والموت والحب حجب عنها"² وهذه إشارة إلى إن ريلكه هو شاعر الأوقات العصبية، والمنقذ بأعماله الشعرية. إذ أنه أبدى انفتاحا على الوجود لا يضاويه إلا أعمال نيتشه التي سجلت إنهاء الميتافيزيقا الغربية، وأكثر ما سجله هيدغر لريلكه هو بعض المصطلحات السباقية والتي تعبر عن هذا الانفتاح الميتافيزيقي لهذا الشاعر، "فمثلا ما يسميه بالمفتوح (Das offen) و يعني به الذي لا يسد الطريق،

¹ -Heidegger, les chemins qui ne mènent nulle part, Gallimard, IBID, p.330.

² - Ibid , p 331

لأنه بكل بساطة حر من كل القيود والحواجز ولا يسمح إلا بدخول الأشخاص ذوي الإدراك النقي و المهياً للانفتاح، وهذا معناه إنارة الطريق للإدراك الفطري الصافي¹ وفي هذا دعوة إلى الانفتاح على الوجود الحقيقي.

ويضيف هيدغر انه إذا كان هناك علاقة للفلسفة بالميتافيزيقا، فإننا بالمقابل نجهل تماما الحوار القائم بين الشعر و الفلسفة و اللذان هما أساسين متجاورين في أعلى القمم المعزولة. هذه إشارة إلى التعقيد والغموض الذي يميز هذه العلاقة والتي عرف هيدغر كيف يتلاعب بخيوطها، ويقر بأن القول الشعري هو المفتاح لإضاءة الوجود.

" لقد استفاد هيدغر من شعر هودرلين الذي نقل منه مفهوم الأرض إلى فلسفته الخاصة"².

وكان اهتمام هيدغر بالشعر في مرحلة مبكرة لكن لم يعلن ولاءه المطلق للقول الشعري إلا بعد 1934 عندما دخل في حوار مع الشاعر الألماني ريلكه وتراكل وستيفان جورج، ولكن تأثر أكثر بهولدرلين الذي طوع الفلسفة لخدمة الشعر واستخدم الشعر لخدمة الفلسفة، فهو شاعر المقدس والتجلي الإلهي، ولقد اختاره هيدغر لأنه أعمق الشعراء قولاً، و أكثرهم تحديداً " لماهية الشعر" و الذي اعتبره حيزاً تمارس فيه اللغة فعلها ومجالاً للتفكير في ما لم يفكر فيه الغرب منذ البدء الأفلاطوني. فشعر هودرلين هو الكاشف الحقيقي وهو ملهم هيدغر في إدراكه للعلاقة الحميمة بين الشعر و الفكر.

يرى هيدغر أن جوهر التقنية المعاصرة بكل ما حملته من ترسانة مفهومية وآلية طردت الوجود الحقيقي، وإن كانت الفلسفة بالنسبة له هي مساءلة لواقعها ولراهنها التقني، ووجب في هذه الحالة عودة الشاعر المنقذ لما دمرته العقلانية، وهنا تبشير بصورة جديدة للوجود فالشعر يبقى أدق اللغات تحملاً لنداء هذا الوجود.

¹ - Ibid ,

² - مقدمة غادمير، ترجمة أبو العيد دودو، منشورات دار الجمل، ألمانيا، 2003، ص144.

كما يقر هيدغر أن الفلسفة لا تولد إلا من رحم الفكر ومن خلاله وشرط ذلك الميلاد هو فكر مرتبط بالوجود وفي الوجود، لان هذا الأخير هو الوحيد الجدير بالارتباط بالفكر، والتفكير في الوجود أخذ طوال التاريخ الفلسفي سبلا عدة و طرقا ملتوية بعضها سبب الضياع والتهيه ولعل تاريخ الميتافيزيقا الغربية أكثرها بروزا.

هذا الضياع كان نتيجة لفكر جانب الحكمة وابتعد عنها و هذا ما عرض وسيعرض الوجود إلى أخطار كبرى أهمها خطرين: الخطر الأول هو ما سببته الفلسفة طوال تاريخها المضطرب والضبابي منذ أفلاطون، والخطر الثاني يتمثل في معضلة أعمق وهي معضلة الفكر في ذاته عندما يرفض التفكير ضد الفلسفة.

و لتجنب هذه الأخطار علينا أن نوجه الفكر من جديد، توجيهه نحو الوجود، و قد لا يحدث هذا في أحيان كثيرة إلا بمجاورة الشعر والشاعر الذي ينشد، فالمطلوب هو الإنصات لهذا الإنشاد، ولكن هل نملك قدرة اختراق هذه الأشعار وهل نملك حكمة الشاعر و قدرته على استنطاق الوجود؟ فكثيرون هم الذين يعتبرون الشعر مجرد خيال بوهيمي Imagination vagabonde تائه لا قرار له ولا قدرة له على إحداث التغيير في فهم الوجود واختراقه. لكن ما يقره هيدغر غير ذلك، فالتفكير هو مهمة الشاعر المقدسة وهو من يملك طلاسمة ومفاتيحه، فرغم التيه و الضياع يسعى الإنسان إلى البحث عن الخلاص حتى وان امتلك نصف قدرة الكشف واختراقه. هذه الأخطار المحدقة سوف لن تسهل أبدا مهمة العبور إلى الوجود الحقيقي فمن يملك القدرة على الاجتياز إلى مقام هذا الوجود؟ انه بكل بساطة الشاعر، فلا يجب إذن استهجان مهمة الشاعر ولا يجب التقليل من أهمية القول الشعري الذي من شأنه أن ينير لنا هذه الطريق الموحشة التي توصلنا إلى الفكر.

فالحوار بين الفكر و الشعر عطل لان سلطة العقل هيمنت على آليات الفكر وتسببت في إرساء ضبابية الرؤية و التضليل عن الوجود الحقيقي، فبدا العقل اكبر عدو

للفكر لأنه سبب تعطل، و تراجع، و ضياع الفكرة. و عندما يصعب على الإنسان الخروج من هذه الدوامة و يتعذر عليه ذلك، عليه بالاستعانة بالقول الشعري، فاللغة التقنية هي نقيض القول الشعري الآخر الذي لا يتفق فيه بعض الفلاسفة الآخرين أمثال Richard Porty الذي يرى أنه يمكن إيجاد صيغة تكاملية بينهما والخروج بشكل لغوي جديد هو الشعر التقني.

إن الفكر و الشعر مرتبطين باللغة ارتباطا وثيقا و كلاهما يشكل (طريقة في القول)، لكن يستحيل أن يتفاعلا في ظل الفصل و البتر الذي أحدثته الميتافيزيقا الغربية، فصل أدى إلى تفكيك وحدة الوجود، وكان هذا أكثر ما دفع بهيدغر إلى تعويض هذه الميتافيزيقا وتجاوزها، إذ ضاع في إطارها الوجود بين تجاذب الذات و الموضوع وبين سلطة العقل الحسابي و التقنية الهدامة، والخلص الوحيد الذي يراه هيدغر هو الاستعانة بالشعراء الذين يفكرون خارج المنزع الذاتي ودون طقوس التقنية الميتافيزيقية. فالفكر الشعري هو ما يقابل ويصارع هذا الإرث الأفلاطوني التقني الرفض للحوار، و رهانات هيدغر في هذا المجال تمثلت في قوة القول الشعري وشجاعته في كسر النسيان الميتافيزيقي و اختراق التحجب الوجودي. فالشعر هو حارس اللغة و مقدر لقيمتها، والشاعر المفكر في الوجود. وهذا ما تميز به شاعر مثل هودرلين الذي اعتبره الألمان نموذج الدقة و والوضوح عندما تعلق الأمر بعرض، بينما يتفوق قدامى الإغريق في رأي هيدغر بامتلاكهم الوهج السماوي الذي يتقد حيوية وتألقا. أما الفكر الألماني فهو الوحيد الجدير في رأي هيدغر بتأطير هذا اللهب السماوي وهو الذي أضاف لها الالتزام العقلي، فادا كان الألمان يفتقرون إلى هذه الروح المنطلقة المعلقة بين الأرض و السماء والتي توزع ادوار الكون على الآلهة و أنصاف الآلهة فان الشعر الهولدرليني هو من يجمع بين دقة الفن اليوناني و وضوح الفكر الألماني

و يتلخص هذا ويجتمع في منتج واحد هو أشعار هولدرلين . " إن التركيبة التي يتميز بها الشعر الألماني هو ما ينتج عن هذا التزاوج الفكري"¹.

لذلك نجد هودرلين يعنون إحدى قصائده "بالعودة"، هذه العودة جسدت حينه إلى الوطن خصوصا انه كان كثير الترحال إذ جاب أقطار أوروبا خاصة فرنسا ولم يجد في ذلك الوهج الأصيل الذي غمر طفولته. و للعودة أيضا رمزية أكثر عمقا و هي العودة إلى أصالة الفكر اليوناني الذي تجسدت فيه معالم الوجود الحقيقي و في هذا الصدد يقول هودرلين عن الوطن:

"للمسافرين الذين برغم ذلك،

حبا بالحياة، ولكن بحذر

تطيعهم الأقدام، تزهر

الدروب أكثر جمالا، حيث البلاد"

كان يرى هيدغر أن العودة عند هولدرلين الذي ترعرع في غابات سوابيا وعلى ضفاف أنهارها الجميلة هو ترمز إلى افتقاده لذلك الصفاء الأصيل، و إذا قيس بتاريخ الميتافيزيقا يمثل الطهر البدائي و هو عصر الميثولوجيا الإغريقية قبل السقراطية والتي كان فيه الوجود واضحا و مضاء، ويرمز سفرهولدرلين إلى أوروبا النذلك الضياع الذي يماثل الضياع الأنطولوجي الذي فرضته التقنية على الوجود.

وفي ظل هذه المفارقات يرى فيها هيدغر ضرورة العودة إلى جوار الشعر و الفكر، و هي ضرورة ملحة لإعادة الاعتبار إلى الوجود.²

"إن لقاء الشعر بالفكر يهدف إلى كشف الوجود المؤسس على الكلمة لكي يتمكن القانون من السكن و التجول من خلال الكلمة". إذن لا مناص من لقاء الشعر بالفكر لأنهما الثنائي الذي يشترط توفره لإظهار المخفي من الوجود.

¹ - Wahl jean, la pensée de Heidegger et la poésie de Hölderlin de Sorbonne p46.

² - هيدغر، انشاد المنادى، ص 92

وفي رسالة أخرى كتبها ريلكه سنة 1925 يقول "إن ملك (ANGE) الاليجيا (Des ELEGIES) هو مخلوق يضمن معرفة اللامرئي بطريقة عالية واقعية¹. ويعلق هيدغر على هذه الرسالة بالقول إن العلاقة الرابطة بين الموجود والوجود هو جزء من هذا الكائن "الملاك" في ظل الاكتمال الداخلي نيتشه فهو شرح أصيل ومقاربة للجوهر والذاتية.

ولعل من أشهر ما قاله ريلكه هو: "ليس لأحد أن يهيك مشورة أو يمد لك يد العون هناك طريقة واحدة فقط، اخترق داخلك". وليس هناك أوضح من هذه العبارة في تكريس اختراق الذات والرجوع بها إلى الصفاء الأصيل لأدراك الوجود بعيون حقيقية. ومن الشعراء أيضا الذين استنطقهم هيدغر هناك ستيفان جورجيه إذ جمع هذا الشاعر بين الشعور الارستقراطي بالحياة وإرادة البطولة و العظمة وآمن برسالة الشاعر الإلهية، وهو رائد النهضة في الشعر الألماني، و قد ربط بين الشعر والصوفية ، ومن أهم مؤلفاته "أناشيد" (Hymen) و "الخاتم السابع" (Der siebent Ring) والمملكة الجديدة (Das mene Reich) و يظهر تطوره الروحي ابتداء من الشك والبحث عن الذات ووصولاً إلى دوره بوصفه قائداً لمجتمع جديد. وأتخذ هيدغر من قصيدة "الكلمة" لجيوجية مثالا لتوضيح مفهومه الأنطولوجي من اللغة وفي هذا الصدد.

" ولكن متى يحدث اللغة بوصفها كذلك ؟ عندما لا أستطيع العثور على الكلمة الملائمة للتعبير عن شيء هو موضوع اهتمامنا فنعوص للحظات فينا. من حيث ماهيتها الأساسية لكن عندما نعبر باللغة عن شيء لا يمكن الحديث عنه فان كل شيء يعتمد على اللغة وما تمنحه أو تحجبه الكلمة، وذلك الأمر مع الشاعر، فالشاعر يدخل في تجربة مع اللغة بطريقة شعرية ، ومن أمثلة ذلك قصيدة بعنوان " الكلمة" الجوهرة THE WORD

¹ -Ibid , p375

DAS WORT ونشرت لأول مرة عام 1919 وفيما بعد نشرت في ديوان " المملكة الجديدة

": وقديما حركني الشوق لرحلة فنية

ومعي جوهرة ثرية و رقيقة

فتسنت طويلا ثم جاءتني بالخبر

لا شيء هنا يرقد في الأعماق

هنالك أفلتت من بين يدي

وما كسبت بلدي الكنز أبدا¹.

يفكك هيدغر القصيدة تفكيكا، ويحاول اختراق معناها لا كالمشارح الأدبي الباحث

عن الجماليات وإنما كالفيلسوف الذي يخاطب العقل أو كالصوفي الذي يخاطب الوجدان

يشير هيدغر إلى إن القصد من " الجوهرة الثرية الرفيعة" هي الكلمة ذاتها، هناك

غموض واضح في العلاقة الرابطة بين الكلمة والشيء ولهذا لا يتمكن الشاعر من تحديد

هوية الجوهرة. وفي ذلك إشارة إلى أن الكلمة ليست بيد الشاعر، إذ يكاد يجهلها، وهذا دلالة

على الاحتجاب والغموض الذي يكتنف علاقة الجوار مع الفكر، "فلا شيء يرقد في الأعماق

أو بعبارة أخرى لا يوجد شيء أثنى من هذه الجوهرة (الكلمة) التي توجد بين يدي الشاعر

فالجوهرة الثرية الرفيعة الموجودة في متناول اليد ليست شيئا وليست كنزا بمعنى الامتلاك

الآمن الشعري للأرض"².

وأكثر ما استخلصه هيدغر من شعر جورجيه³ هو أن الكلمة هي التي تسمى

الشيء و الشيء هو كل ما يوجد ونحن نعثر على الكلمة المعبرة عن الشيء. أي أن كل

شيء موجود يعبر على سكنه و مستقره في الكلمة، لان اللغة بيت الوجود فاللغة عند هيدغر

¹ عبد السلام جعفر دراسة فلسفية في قصيدة ستيفان جورجيه "الكلمة" دار الوفاء للنشر والطباعة الأسكندرية 2001 ص

30.

² - نقلا عن نفس المصدر السابق ص 31.

هي سيدة العلاقات، ومحركة العالم وكاشفة الوجود، وهي التي تعطي وتمنح وتحفظ و تحمي، وعلى الإنسان أن يسكن في بيتها و يحرسها ويرعاها، ومن هنا يصل هيدغر إلى أن الشعر هو التسمية التي تؤسس وجود وماهية سائر الأشياء.

المبحث الخامس: من لغة الميتافيزيقا إلى لغة الشعر.

لقد اجتاز هيدغر منحرجا هاما قلب فيه المفاهيم، ويتمثل ذلك في إنارة في إنارة البعد الوجداني للدازين ، فهذا البعد كثيرا ما اعتبر لصيقا بعالم الخيال والأدب، ولم يرى هيدغر الصواب في هذا الاعتبار، إذ حيث أن حفرياتة في لغة الإغريق القديمة مكنته من التوصل إلى أن كلمة شعر Poésies تعني الإبداع Création وهو ينتمي إلى Muthos ، بينما الفلسفة التي عرفت كمحبة للحكمة تنتج خطابا عقلانيا ينتمي إلى Logos، ومن ثم ساد اعتقاد سيطر على تاريخ الفلسفة، وهو أن Muthos و Logos نقيضان لذلك فهما ينتجان خطابين مختلفين في الطبيعة والأسس، وهذا الاختلاف استمر من منظور البراديغم اليوناني ليصبح غيرية Altérité، فأصبح الشاعر، والشعوري، والأسطوري، والحسي والخيالي أسماء تطلق بنوع من التشكيك.

فأي علاقات يراها هيدغر ويمكن أن تربط الفلسفة بالشعر؟ وهل بالإمكان الربط بين الفلسفي والعقلي والمنطقي والحقيقي من جهة وبين الوجداني والذاتي من جهة أخرى؟ إنها معادلة تبدو شبه مستحيلة فمن غير الممكن مقارنة الثبات بالتناهي، ورغم ذلك فبالنسبة لهيدغر المقاربة في الموضوع قائمة والروابط موجودة وممكنة بين الشعر والفلسفة، وذلك وجب الوقوف على فعاليتين بشريتين تنتميان معا إلى ما يسميه القدماء بالنفس هما الخيال والعقل لكونهما مصدر هذين الخطابين. الخطاب الشعري و الخطاب الفلسفي.

مع الإشارة هنا إلى أن الإرث الفكري الإغريقي سيما الأرسطي كان يعتبر الجمع بين هذين العنصرين استحالة حقيقية، فالعقل قد تأسس بالنسبة لأرسطو على جملة من المبادئ العقلية صاغها منطق الصوري وجعلها حامية للطابع العقلي للحقيقة وهي مبدأ الهوية، مبدأ عدم التناقض، ومبدأ الثالث المرفوع، وأسس معايير مضبوطة لعملية إنتاج القول الحقيقي وهي معايير البرهان، وذلك حتى لا يسمح بأية إمكانية لتسرب الخيالي

والحسي في عملية إنتاج الخطاب، مع ذلك تبقى هذه البرهنة العقلية الصورية محل أخذ ورد في تثبيتها للقضايا، وكما يقول هيدغر "لطالما اعتبر المنطق علما موثوقا وجديرا بالثقة، إلا انه حافظ على رتبته ولم يجدد المعارف"¹، أي أنه بقي عالقا بين القوالب العقلية الجامدة وعقم إستنتاجاته.

إن تاريخ الفلسفة هو تركيز للميتافيزيقا، فهيمنة الفكر الميتافيزيقي بكل مستوياته خلفت صراحة فكرية وتحديدات اصطلاحية مقولية لا تقبل التشكيك، وهذا ما يبرز في المنطق الأرسطي بكل أقواله المنطقية و إستدلالاته والذي لم يجعل الفكر مع ذلك بمنأى عن الخطأ والتضليل.

أما فلسفة اليوم فقد أحدثت انقلابا على كل المفاهيم الميتافيزيقية الكلاسيكية، فمفهوم الدازاين الهيدغري استطاع خلخلة بدا هات النسق الحديث بالعودة إلى "صبا" الفكر الإنساني في أصلاته قبل الخطيئة الأفلاطونية. أفلاطون الذي طرد الشعراء من جمهوريته وأرسطو الذي اعتبر الشاعر بمثابة المؤرخ، فلم يتركنا بذلك مجالا لوصول الفكر الأصيل إلى عقول العامة.

إن أفلاطون في الكتاب العاشر من "الجمهورية" يذهب للتأكيد أن الشعر لا يهمله البحث عن الحقيقة بل هو يرتبط بالظاهر وما يبدو، فهو مؤسس على الاحتمالية بينما الفلسفة تتوجه إلى الحقيقي واليقين، وفي الوقت الذي نجد فيه الفيلسوف يفكر من خلال حجج وبراهين فان الشاعر ينتج خطابا تقريريا غير مبرهن عليه، ويمارس الشاعر الخداع والتقليد والمحاكاة، فهو يصنع مجرد أشباح لذلك فهو خارج المدينة الفاضلة التي لا مكان فيها إلا للفلاسفة الذين هم سادة المدينة.

فإذا كان القرن الخامس والرابع قبل الميلاد قرني أفلاطون وأرسطو، فربما نستطيع القول أن القرن العشرين هو قرن هيدغر، فلقد أسس هذا الفيلسوف لعمل مفاهيمي

¹ - Heidegger, Introduction a la métaphysique, p128.

جبار، كشف عن عجز منطق أرسطو وحكمة أفلاطون في حل الكثير من المسائل. ولكن مراجعة التصور الفلسفي للشعر لم يحدث فقط مع هيدغر، فبعد ظهور المد الرومانسي في القرن 19، دخل الفكر الإنساني مرحلة جديدة وغاص العقل في عمق جديد، ولعل أبرز من مثل الفترة أعضاء حلقة إيلينا Le Cercle d Ileana التي تزعمها فريديريك شليغل Frédéric Schlegel، إذ سعى هؤلاء إلى تحرير الشعر من السلطة التقليدية للفلسفة، فلم يعد الشعر مجرد محاكاة.

و أصبح الشعر بالنسبة للألمان شرط لازم لكل فلسفة عظيمة، فهو يوحد الأنواع في العالم، وهو ليس محصوراً في موضوع معين كما نجده عند أرسطو الذي ربطه بالملاحم التاريخية. ويعتبر الشعر آخر مراحل تطور الفن وتتويج لمساره، ولعل أهم ما قام به هيجل هو إدخاله للشعر في النسق العقلي مما مهد لمحاولة هيدغر في تكوين فهم جديد لماهية الشعر. إذن لا يمكن اعتبار الشعر خارج نسق تطور العقل، وكل ما قام به هيدغر هو تصحيح لتراث فلسفة همشت الشعر.

ولهذا قام هيدغر بتقريب اللغة من الفكر وذلك بإجراء حوار بينهما، فالتفكير إنصات لوجود عبر ما يقال دون أن تتحول "الكلمة إلى مجرد اسم يحمل على الموجود". كما عمل على تقريب الشعر من اللغة بهذا التقارب العجيب و بهذا الارتباط الوثيق الذي يكشف عن أهمية لغة الشعر. و تقودنا هذه التقاربات بين اللغة والفكر، بين اللغة والشعر بالضرورة إلى البحث في علاقة الشعر بالفكر. "إذا قارنا الآن الشعر بالفكر، نجد بين هذين الأمرين، بين الشعر و الفكر قرابة خفية لان كليهما مهتم باللغة"¹

فهيدغر ينفي التحديد الأفلاطوني للشعر وعلاقته بالفلسفي و يقوض منطلقات ميتافيزيقيا البدء الأول، والتي ترى أن بين الشعر والفلسفة معركة قديمة، ويسعى إلى تجاوزها بلغة شعرية لا تحتمي بالثنائيات ولا بمبدأ الهوية، فمدلول القصيدة الشعرية أكثر وأعق من

¹ – Heidgger , acheminement vers la parole , op.cit, p164

أي نظرية منطقية محدودة بالعقل، لذلك نجد أن تطور مختلف الفنون خصوصا الشعر قد عرف منعرجا كبيرا فهو لصيق بالماهية الإنسانية.

إن المقاربة بين الشعر والفلسفة لا مناص منها إذا كان المفكر يبحث عن قضايا الوجود ، فالشاعر يبحث عن المقدس ويقول، وتوضح هذه المقاربة جليا في الفكر الحدائي الذي لم يعد يحتاج إلى لغة جافة تضرب في جذور المنطق والاستدلال، فاللغة أساسا تحتاج إلى عمل فني يتطلب التأويل، ورغم رفعة مقام الأعمال الفنية إلا أن الشعر يبقى وحده متربعا على قمة الكشف عن الوجود .

إن مهمة اللغة إذن ليست تواصلية فحسب أو تفسيرية، عمل اللغة هو شعر الوجود الأكثر أصالة، والفكر يفكر في الفن باعتباره كله شعرا. وكما أسلفنا القول فإن ماهية الفن والعمل الفني بوجه خاص تتكشف من خلال فهم الأليثيا أو الحقيقة كما أرادها اليونان ، بمعنى التحلي والتفتح والظهور من طوايا التحجب والخفاء وتحرر الوجود من احتجابه في اللغة وانكشافه في بيت الشعر "الذي يحرسه الشعراء". فالشعر عند هيدغر هو كلام خاص بالوجود يتطلب الإنصات بعمق، لأن الوجود يسكن اللغة ويتكلم لغة الشعر، وبهذا الإنصات تختفي المفاهيم المجردة والمقولات المنطقية التي حجبت حقيقة الوجود. إن شعرية الفكر المعاصر لم تكن ممكنة بدون عمل فكر سابق انصب بالأساس على المفاهيم، ففكرية الشعر أو شعرية الفكر هي نتاج لعمل انصب على مفهوم الفكر ذاته، والإبداع لا يوجد حيث يكون للتأمل حدود.

إن عملية الإنصات للذات والعالم لا تتم حقيقة إلا من خلال شاعرية في التفكير، ولكي نفهم هذه الطريقة علينا أن نكون على ألفة مع القصيدة، فالشاعر لا يتكلم عن الشعر وإنما يحمل الشعر ويحدد طبيعته بطريقة شعرية، فيعطي بهذا للقصيدة صوتها الحقيقي اللائق بها. وهذا الشاعر لن يكون في اعتقاد هيدغر إلا هولدرلين الذي يحقق من خلال قوله الشعري الإنصات للوجود.

إن جوهر الشعر في تحديده للوجود يمكن أن يفهم بصفة منفردة أو كعملية إسناد أولوية انطولوجية لنوع أدبي معين على حساب نوع آخر، ولكنه يفهم، على العكس من ذلك انطلاقاً من تشابكه وتلاؤمه مع ثلاثة ميادين تتآزر و تتلاءم بعضها مع بعض أولاً وهي: العمل الفني، واللغة والمقدس، فالقصيدة مثلاً هي عمل فني في مادته و لكن هو أيضاً الشعر هو تلك اللغة التي تعظم الكائن وتضعه موضع القداسة، ومن يتولى التعبير عما هو مقدس ينبغي أن تتضمن ماهيته ما هو مقدس ومن هنا تصير اللغة بمفهوم هيدغر شيئاً مقدساً.

وللوصول إلى اكتشاف الكينونة لا بد من العبور إلى حقيقتها، ولكن هذا العبور ليس باليسير ولن يتمكن منه إلا الذين يملكون الأسباب والمستلزمات الفكرية لذلك يعتقد هيدغر انه ليس سهلاً على أي إنسان إن يعبر إلى هذا المقام إلا إذا كان شاعراً: " فالعبور ليس سهلاً إلا على العابرين على كل واحد، وعلى من ضحى من أجل هذا العبور، ومن أجل هذا السؤال الحاسم بأمر الوجود يحرض السؤال للعابرين على المضي دون أن يضعوا لعبورهم نهاية، ولأسئلتهم حدوداً"¹.

يرى هيدغر أن اللغة هي أخطر النعم، فهي معرضة كغيرها للتخريب Dévastation، وبالفعل فقد تحولت بفعل هيمنة الذاتية إلى أداة للسيطرة على الوجود، هذا ما تسبب في انحطاطها وإخفاء ماهيتها، فسطو الميتافيزيقا الحديثة ليس بالهين حيث حرف المسار وشوش الرؤية.

وحتى تنهض اللغة وتضطلع بمهمتها من جديد كما كانت لدى الفلاسفة ما قبل سقراط ، يجب تنقيتها مما علق بها من شوائب النزعة الذاتية، والتي كان مصدرها يعود بالأساس إلى هيمنة الميتافيزيقا الذاتية. والشعر هو الكفيل برد الاعتبار للغة كمسكن للوجود لأنه يملك التسمية Nomination كقدرة للغة، فكل شاعر عظيم يحمل المعاني

¹-علي الحبيب الفريوي ، مارتن هيدغر ، (الفن و الحقيقة) ، أو الإنهاء الفينوميتولوجي للميتافيزيقا ، دار الفارابي،

مختفيا في اللغة التي تختزل وظيفتها كأداة للتواصل إلى ماهية كاشفة للوجود، أي أن الشعر يعبر عن ماهية كقصيدة صامته لظهور الوجود. إن الشعر يعيد للغة قدرتها على تسمية الأشياء، فبفضله تستعيد اللغة قوتها على أساس الوجود، وما اللغة سوى القصيدة البدائية لشعب تاريخي أصيل فهي بهذا تعتبر منبع الشعر.

ومعنى هذا لإعادة تأسيس الوجود يجب ترك المجال للفن بعدما أخفقت الميتافيزيقا في ذلك، والتأسيس يكون عن طريق التسمية، ففوة التسمية تتعدى كونها مجرد إعطاء أسماء للأشياء، فهي دعوة للوجود أن يوجد، فالأشياء المسماة مدعوة للانكشاف في الوجود، وهذا يعطي للغة أهمية بالغة، ولذلك كانت مهمتها من أخطر المهام.

والفن في أرقى صورته شعر، وبما أن هيدغر يرى أن الفن هو تهيو لانكشاف الحقيقة، فإن هذه الحقيقة لا تتكشف إلا بتكثيفها، وهذا هو معنى الفعل (Dichten). والمهمة العليا والأساسية للفن الشعري تتمثل في صياغة الحقيقة شعريا، وبعبارة أخرى شعرنتها (Poematisation).

إن اكتشاف الحقيقة في القصيدة ثم إظهارها في الشعر لاحقا، يجعلها قابلة للظهور في فسحة الانفراج والإضاءة (Lichtung) وهو معنى قول هيدغر الشعر تأسيس (Instauration) للوجود وتركه يوجد، إنه حماية ورعاية. وإذا كانت الأرض أساس (Grund) الفن ومسكنه ومستقره الأصلي، فهي ليست شيئا آخر سوى اللغة. إذ يحاول الفن أو الشعر تأسيس عالم هو بمثابة إضاءة لأرض هي اللغة البدائية، ومحاولة صياغتها وحملها على الظهور رغم استعصائها وتمنعها وانسحابها الدائم، وذلك في حيز إضاءة ولمعان.

ولم يكن هيدغر ليصل إلى هذه القناعة لو لم يحط بأعمال أهم الشعراء الألمان كتراكل وجو رجييه وريلكه، وبالخصوص فريدريتش هولدرلين.

والشعر في نظر هيدغر ليس مرادفا للنظم و التتميق، وليس منتوجا عن الحكمة الشعرية البيانية فقط، وإنما يمكن اعتبار الكلام اليومي الأصيل شعرا " الشعر لغة، والشعر مثله مثل الفكر، إنهما معا كلام قائم على الاستماع أي على الصمت ". وهنا تظهر طرافة فكر هيدغر في اعتبار الكلام الصامت هو كلام لغة الإظهار لدى الشعراء الذين حاورهم هيدغر.

إن انتهاء الميتافيزيقا جعل الفكر يبحث عن مخرج له و منفذ يمكنه له أن يستقر في الوجود، ولا مناص من اعتبار الشعر هو الملاذ لهذا الفكر الضائع، فهو التفكير في الوجود وفكر الوجود في آن واحد La pensée de l'Être ، هذا التفكير الذي كان مغيبا في الفلسفة، سيما في العصر الحديث، حيث همشت ماهية الشعر ولم يعد سوى ضربا من ضروب التسلية الأدبية ، لذا طلب العون من الشعراء الحقيقيين يفرض نفسه وذلك لإضاءة ماهية الشعر واستشراف مكنوناته. فإذا كان الفكر لا يحافظ على نفس الوتيرة خلال المراحل التاريخية المختلفة، فتتقاذفه حجة العلم تارة وسلطة علوم الدين (التيولوجيا) تارة أخرى، فإن القول الشعري يحافظ دوما على طابعه الأصلي البدئي، فالمتغيرات المتوالية التي تؤثر في اللغة تجعل وتيرتها فاقدة للاستقرار، وبالتالي ما هو غير مستقر لا يمكن اعتباره مؤشرا للوجود وكاشفا له.

هذا الاستقرار والوحدة الذي يميز اللغة الشعرية هو الذي يجعلها تبحث عن الفهم الحقيقي للكلمات في طابعها البدئي وفي صورتها الأولى.

" إن حديث هيدغر عن تجربة الفكر مع اللغة الرمزية، هو من جهة استعادة ماهية اللغة الاظهارية ومن جهة أخرى من اجل أن يقربنا من تجربة الفكر قبل أن ينحدر إلى شكل إدراكي قائم على فعل التفلسف، الشكل التفكيرى الذي انحدر معه الإنسان وتحول إلى مومياء عاقل".

ولعل أكثر ما يجعل هيدغر يعمق رؤياه هو استعادة اللغة الرمزية وذلك بشكل شعري، لأن آلة المنطق قيدت الفكر وحصرت الحقيقة وجعلت العقل ملكة معصومة من الوقوع في التناقض و اللبس، إن الوجود الإنساني ابعدهما ما يكون عن التفكير بالمتعاليات أو الماهيات، لذلك فالتحول الأنطولوجي يكمن في إعادة اعتبار اللغة، و بالتحديد اللغة الشعرية.

1- هولدرلين وجوهر الشعر.

يعتبر هولدرلين من الشعراء الذين لم يبنوا فكرهم على قوة القوافي أو جمال التعبيرات البيانية، و لم يكن من الذين يحومون في ملكوت الطبيعة بعواطف حالمة وعقول مغيبة، فكل أشعاره وحتى خواطره ورسائله كانت ترجمة لحاضر يستفسر عن الوجود وسره وعلاقته بالإنسان. وإذا اعتبرت اللغة أداة تواصل، فبالنسبة لهولدرلين هي جوهر الوجود، سيما القول الشعري الذي يكتنفه العذاب والألم على الطريقة الإغريقية التراجيدية التي تتمحور حول ترجمة المعاناة والمآسي بطريقة مقدسة، تمثل الصراع بين الآلهة والبشر. هذه المأساة أسرت هولدرلين فأراد أن ينقل لهيبتها وأنوارها للإنسان الحديث، فهو الذي سعى دوماً من خلال أعماله إلى تحرير اللغة من هيمنة العقل.

يعبر هولدرلين خصوصاً من خلال عمله التراجيدي عن أن الشعر هو محاولة مأساوية للعقل، فالذي فشل فيه العقل الديكارتي وغفل عنه المنطق يحتويه الشعر بكل ما يملكه من قدرة على التنوير و الكشف. فرغم جنوح الإنسان إلى استعمال لغة العقل في البحث عن الصفاء، إلا أن هذه العقلانية وظفت بطريقة مبالغ فيها، ولم تستطع بهذا أن تسكن الإنسان كما فعل الشعر.

يمكن القول إن الخطاب العقلي يتميز أساساً بانفصاله عن الطبيعة وعن الوجود الإنساني، فهو منغلق ومحدود المجال بينما يتأسس الخطاب الشعري على الحدس والإدراك

المباشر لعناصر الطبيعة واستنطاقها وهولدرلين من الذين اعتبروا الشعر هو الأداة الضائعة التي وجب إعادة النظر فيها، ولا سبيل لذلك إلا بالعودة بالدرجة الأولى إلى التراجيديا الإغريقية رغم انه لا وجود لقاسم مشترك بين قدامى الإغريق والإنسان الحديث لأن الإغريق و بكل بساطة تحكموا في اللغة وارتقوا بها إلى أعلى مراتب الوجود، ولكن ما يشفع لنا في استحضار التراجيديا الإغريقية في العصر الحديث هو وجود الشعراء الذين بإمكانهم نقل المعاناة، فإذا كانت التراجيديا هي الحداد على الواقع، يمكن اعتبار الشعر هو المبكى المروح عن النفس والمعبر عن الخطايا.

انه لمن الصعب-حقيقة-العودة إلى المرحلة الإغريقية، ومن الصعب أيضا تقليد القدامى والتصالح مع الطبيعة الأم، ولكن مع وجود الشعر يمكننا التعبير عن تلك المعاناة التي عرفها الإنسان بانفصاله و ابتعاده عن المقدس Le Divin. لذلك احتل الشعر منزلة متميزة في أعمال هيدغر الذي اعتبره تسمية و تأسيسا وموقعا تتقاطع فيه اللغة بالتاريخ وبصدى المقدس. و هذا الحضور الطاغي للشعر في فلسفة هيدغر كان من خلال محاوراته للشعراء، خاصة لهولدرلين الذي اعتبره شاعر الشعراء بامتياز، إذ يفترض بامتياز أن هولدرلين نفسه هو من يحملنا على اتخاذ قرار العودة الى الوجود، ويجبرنا عليه. وتفرد هذا الشاعر الألماني يسمح لهيدغر نتأمل أشعاره، واعتبارها تأسيسا تاريخيا لماهية الشعر وروح العصر.

ب- الشعر و المقدس.

اعتبر هيدغر المقدس جزءا من مشروع الفلسفي الذي حاول من خلاله إعادة صياغة سؤال والكينونة L'être ذلك أن السؤال الوحيد الذي ظل يهيمن على فكره هو التالي: ما هو

جوهر الكينونة ؟ " وإذا كان الفلاسفة قد طرحوا هذا السؤال فإنهم اكتفوا به بالنظر إلى الكينونة في كليتهما دون تفاصيلها ¹.

لقد أثقلت الميتافيزيقا من منبعها الأفلاطوني و الأرسطي ووصولاً إلى الفكر الديكارتي كاهل الفكر، فلم يعد بوسع إدراك الوجود الحقيقي، وعبئها أنها وجهت البحوث الفلسفية بصيغة تقنية، و تناست في هذا البحث الطبيعة الإنسانية، وقد أدى ذلك إلى "تراجع السؤال عن المقدس ووقوعه في خانة في خانة النسيان، وإلى تشكل عقيدة فلسفية، لا تفر بعدم جدوى التساؤل حول حقيقة الكينونة فقط، بل وتعلن عدم شرعيتها أيضاً". إن الميتافيزيقا الحديثة التي تمجد الذات ووجب تجاوزها، و إعادة بناء فكر عميق مبني على معرفة عميقة للإنسان في علاقته بذاته وكيونته.

و إذا كان المفكر يشير إلى الوجود و يلتفت حول تفاصيله، فإن الشاعر هو من يسمى المقدس (Le penseur dit l'être et le poète nomme le sacré) ، لهذا فإن مهام الشاعر تبدو أكثر ثقلاً وعمقاً من مهام غيره. وهنا إشارة لهيدغر إلى قصور الفكر ضمن الهالة الميتافيزيقية التي يمثلها وانحصاره فيها، فهو لم يعد مواكبا لفهم الوجود. ذلك أن كل الأسئلة المتصورة حول الوجود لا يمكن أن تتأسس، إن لم تكن تتطرق إلى المقدس، لأنه يمثل سبل الفكر في استحضار الكائن في تفاعلاته مع شروط كينونته. ثم أن إدراك العلاقة الحقيقية بين الفكر والشعر يكمن في تجاوز قاسمهما المشترك وهو اللغة، والاتفات والتركيز على المقدس في علاقته بالوجود.

ولا يأخذ المقدس هنا دلالة دينية، على الرغم من حديث هولدرلين عن الإله. فالمقدس هو اسم لمسمى آخر تسميته لما تمت تسميته من طرف عباقرة الفكر، الذين ظلوا منشدين لتأويل الحقيقة على أساس الفيزيس". لذلك اعتمد هيدغر على رنين بعض الأسماء التي تعين ماهية الشيء نفسه، كالإيثيا والوجود والفيزيس. وفي هذا السياق يكشف لنا سلم

¹ – In. Heidegger, L Etre et le temps, trad. François VEZIN, paris Gallimard, 1986, p25.

القيم الذي سطره هيدغر في تبيان قيمة المقدس، فيبدو للوهلة الأولى انه الهدف الأسمى والأصعب الذي يسعى الإنسان إلى بلوغه. ولكي يكون الوجود الموجود، ويضحى المقدس لا مفكرا فيه، وان كان بارز الحضور، خلافا لمرحلة الابتعاد عن المقدس التي حاولت استبعاده بقوة الفكر، وفي هذه إشارة إلى العصور الحديثة التي طغت فيها لغة التقنية والمنطق، فأنتجت فكرا ميتافيزيقيا يمجّد الفكر ويقصّ مجال المقدس، رغم أن الفكر ليس عائقا أمام كشف المقدس، بل انه يدعم القول الشعري ويدفعه قدما لإضاءة الوجود ولا مفر من وجود المفكرين لتمكين الشعراء من إظهار قدرتهم على إضاءة الوجود. فالشعر هو ما يسمى المقدس وهو يقع في أعلى سلم المعارف الكاشفة لحقيقة الوجود وما دون ذلك يعد من غير قيمة.

لذلك سعى هولدرلين -كما لاحظ ذلك هيدغر- وبالإضافة إلى بالإضافة إلى أعماله الشعرية إلى ترك أيضا عددا من التأمّلات والرسائل والمقدمات النقدية التي من شأنها أن تسلط الضوء على الفكر الذي كان يوحد هذه النظرة إلى الشعر ويؤسسها على قواعد متينة مثل: "حول طريقة استغلال الحس الشعري" و "حول اختلاف أنواع الشعر"، و "حول أجزاء القصيدة"، وكذلك ترجمات عديدة لمسرحيات سوفوكليس التراجيدية.

إن هذه المقدمات النقدية لهولدرلين كشفت عن التجربة الشعرية في قصيدته والأطر التي حددها، وهي تجربة كان هذا الشاعر دائم العودة إليها ودائم النظر فيها باستمرار. ففي المقطع الثالث من مرثيته "خبز ونبيد" يقول هولدرلين إن ما هو خاص في ما هو جوهرى لا يستطيع الشاعر أن يبتكره فهو غالبا ما يخضع لصوت ما هو حتمي ويستجيب لاستلها مات الدعوة (الرسالة)، فمثلا في كلامه عند الزمن يقول هولدرلين في نشيد ميموزين Memosyne "مديد هو الزمن"¹. و لكن مديد إلى أي حد؟ يمكننا التساؤل. انه مديد بمقدار ما يتيح للشاعر أن يخترق عصرنا الحاضر الخالي من الإلهة. فعلى الشاعر أن يخترق هذا

¹ - نقلا عن هولدرلين، إنشاد المنادى (قراءة في شعر هولدرلين وتراكل) تلخيص بسام حجاوي، المركز الثقافي العربي،

الصمت لتمهيد الطريق أمام عودة الآلهة. و ليس المقصود بالآلهة آلهة اليونان القدامى، بل هي آلهة مختلفة وحاضرة، بل أكثر حضورا من أي وقت، فهي لم تكن يوما جزءا من الماضي ولم تتطفئ، بل ما حدث هو انها ذهبت بعيدا، وفي هذا يقول هولدرلين:

"لكن بما أنها على هذا القدر من القرب، الإلهة الحاضرة

ينبغي أن أكون كما لو أنها بعيدة، وغامضا بين الغيوم

ينبغي أن يتراءى لي اسمها، فقط قبل ان يضيء

الصباح، قبل أن تلتهب الحياة عند الظهر

اسمها لنفسي بصمت، لكي تكون للشاعر

حصته، ولكن حين يهبط النور السماوي

أجد النور القديم في راسي وأقول برغم ذلك تزهر".¹

ففي هذه الأبيات يلاحظ هيدغر أن هولدرلين يستعمل كلمة "ينبغي" مرتين، الأولى مقصودها صلة الشاعر بحضور الآلهة الحاضرة، أما الثانية فتتعلق بتسمية الآلهة الحاضرة. وكلمة ينبغي هي إشارة إلى الضرورة المقدسة التي تدفع الشاعر إلى تسمية الصمت.

وفعل التسمية هو فعل القول في رسالة كتبها هولدرلين لوالدته عام 1877 ويعرض فيها فكرته ودافعه الأسمى في كتابة الشعر فيقول " انه الشاغل الأكثر براءة بين المشاغل كافة"².

والأرجح في هذا الاعتراف كما يعلق هيدغر هو أن هولدرلين يرى الشعر لعبة "كلعب الأطفال"، إذ لا عقبات تواجه المشتغل بهذا اللعب حيث يختلق اللاعب عالما من

¹-نقلا عن نفس المصدر السابق، ص 102.

²-نقلا عن نفس المصدر السابق ص 55.

الصور خاصا به ويبقى مستغرقا في إطار ما تخيله"¹ وفي هذا إشارة إلى أن النشاط الشعري مبدئيا هو مجرد حلم لا يتفاعل مع الواقع أو يحاول تغيير معالمه، فالشعر غير الواقع ولا يماثله في شيء فهو لعبة أداتها الكلمة، أو انه بالنسبة لهيدغر " يخلق أفعالها في إطار اللغة وبيئتها من مادة اللغة"².

وفي هذا تأكيد على أن الشعر يبقى وحده المصحح والجامع والحافظ للوجود، هذا الوجود الذي حجبه الميتافيزيقا بترسانتها المفهومية وطوقت العقل و حورته إلى آلة حاسبة ينحصر نشاطها في جملة من القوانين المنطقية التي هيأت لقيام التقنية، التي لم تتأسس إلا على مخاصمة المقدس ونبذ الشعر و الفن. وأبرز ما يؤيد هذه النظرة هو موقف أفلاطون الذي بني موقفا فلسفيا فيه كثير من التبخيس للشعر و الفن، وعين نفسه بذلك حكما و وصيا على الميتافيزيقا.

ولعل لجوء هولدرلين إلى قاموس الإغريق القديم في أشعاره وعودته إلى مرحلة ما قبل سقراط هو عودة إلى عصر الحقيقة على أساس مفهوم الفيزيس، ذلك أن هذا العصر قد فهم بان لغة ذات أبعاد لشعرية متعددة، أما كلام الناس فهو جزء فقط من أجزاء هذه اللغة. إذن منحدر شعرية اللغة هذه يصب في معنى العصر الإغريقي الذي فهم الحقيقة على أساس الفيزيس ، وهي نفسها لغة الوجود التي تتجلى بوصفها موطن الإظهار.

« إذ استند الفكر الإغريقي على الرمز ميموزين واسم هسيبيا Hyspia . فالاسم الأول يرمز إلى حقيقة الشوق الإنساني من أجل إقامة قدسية فوق كوكب الأرض »³، فهو تذكير بكل ما هو أصيل أي الشعر وباقي الفنون. علامة واحدة، ها نحن، فقدر الآلام نحن،

¹-نقلا عن نفس المصدر ص 55.

²- نفس المصدر ص 56.

³ -Heidegger , Les chemins qui ne mènent nulle part , op,at, pp253- 272.

و فقد لغتنا في البلد الغريب

حبن فوق هامات الرجال يشتد نزاع السماء¹

أما هيسبيا فهو يرمز لإحدى الربات، إنها ربة البيوت، واسمها تذكّار لحكمتها في إطار السكن الذي ينبغي أن يكون نسخة من عالم الآلهة، ورمز هذا الاسم دعوة للبشر ليسكنوا بيوتاً تتشبه ببيوت الآلهة، و في هذا إشارة إلى الطريقة المثلى التي ينبغي الإقامة وفق شروطها، لكي يتحقق السكن والاستقرار بمعناه المادي و الانطولوجي، فعلى البشر أن يعيدوا صياغة علاقتهم ببيوتهم بنفس القدسية والقربى التي تربطهم بالمعابد و الآلهة. و لكن كل هذا لم يتحقق إلى الآن فقد حاول الفيلسوف أن يحقق الإقامة وفق تشريع عقل حسابي يقدر العلوم و ينبذ الفن و يجعل التنقية هي المسيطرة.

¹- انشاد المنادى ص 131.

الفصل الثالث

الشعر في مقابل الميتافيزيقا

المبحث الأول: مرحلة الراين Rhin بوصفها مرحلة انتقالية

تعتبر هذه المرحلة أكثر المراحل تميزا في المسار الشعري لهولدرلين حيث اتسمت بالنضج والقوة الفنية التي تجعل من شعره أكثر اتساقا وتوازنا، وتجعله أكثر تحررا من كل الزوايا الداكنة، إنها مرحلة تقوى فيها العود واستقامت فيها القامة، وتوجت بالانطلاقة والعنفوان.

وكل هذه الخصائص التي تميز بها شعر هولدرلين جلبت انتباه هيدغر الذي استلهم منها ركائز فلسفته، واستضاء بمدلولاتها لينسج نسقا مفهوماتيا اتصف بالجدة والأصالة والتميز.

ولقد سبقت هذه المرحلة عدة مراحل كشف فيها هولدرلين عن منطلقات آرائه، وحاول من خلالها السير في طريق الكينونة الصحيح، فكل أعماله مستوحاة من الميثولوجيا الإغريقية التي استمد الكثير من رمزيتها، وعرف كيف يوظف صراع الآلهة مع البشر للظفر برويا أصيلة للوجود، ففي أعماله التي أنجزها في هذه الفترة والتي بدت تجلياتها بعد 1801، يظهر ذلك التراجع Regression الذي يكشف عن مدى تعلق الشاعر بالأرض الأم Le retournement natal، و العودة إلى مسقط الرأس.

و حديث هولدرلين عن الراين في أشعاره هو إشارة إلى هذا النهر المتواجد في وطنه، وفي منطقة ترعرع فيها هي "سوابيا" حيث يمثل جريان الماء أصل النهر ومنبعه، وهو تذكير بضرورة الرجوع إلى مسقط الرأس لفهم و معايشة الوجود الحقيقي من خلال استشعار نقطة البدء والتي هي النقطة الحاسمة في إظهار الوجود.

وفي القصائد التي محورها نهر الراين يظهر الصراع بين النهر وأنصاف الآلهة Demi-dieux، والذي ينتهي بانتصار النهر الذي يأخذ مكان المشرع ويتحول إلى حاكم رمزي يشرع للمدينة. وما يميز هذا الصراع أيضا هو انه صراع دافع إلى الأمام تارة

ومقهور للوراء تارة أخرى، وهذا المد والجزر هو ترجمة واضحة للبحث عن موطن الوجود الحقيقي.

كما ينتهي هذا الصراع بانصهار كل العناصر، و هذا ما تتحدث عنه قصيدة الزفاف " Les nocces " عندما تصف هذه النقلة من الصراع إلى اللقاء، لقاء البشر بالآلهة، فينتج عن ذلك علاقات تربط بينهما، فلا طالما كانت نظرة الشاعر توفيقية ومصالحة بين الأقطاب المتنافرة، وفي هذا تتجسد العودة إلى أرض الميلاد ومسقط الرأس.

والزفاف هنا هو التقاء السماء و الأرض، وهو لقاء يرمز إلى المصالحة والالتحام الذي لا تتحقق إلا في لحظات متفردة تظهر فيها الآلهة. ورغم ما يظهر من تناغم وانسجام إلا أنه لا يمكن التأسيس لوجود دائم بتصالح الآلهة والبشر، ولهذا نجد حنين هولدرلين يتجسد في العودة إلى مسقط الرأس أين تقترب الآلهة من البشر. لذلك كانت مرحلة الراين انتقالية، يتجسد في انتقال مرحلة من صمت الآلهة رجوعا إلى مرحلة الصبا ومسقط الرأس، فالنهر يعبر عن البداية والبروغ وجريانه دليل على حركية الزمن و تواتره، ويتضح جليا ارتباط هولدرلين بمسقط الرأس كمعلم Repère وكبداية، وكينبوع ممتنع، فيه تدفق واندفاع من أجل الانتشار والظهور في الحضور، انه البويزيس poesis.

لقد كتب هولدرلين أنشودة الراين في فترة بين صيف 1800 إلى خريف 1801 وعلى إثر ذلك ترك ملحوظة بخطه تبرز مقام القصيدة ومختلف تفاصيلها بالنسبة للشكل والمضمون، ويتضح جليا أن هناك تعارض أساسي في الشكل و المضمون، وهذا فن يشير إلى تأثر هولدرلين بالمذهب الكانطي، ونظرية الفن عند شيلر Schiller. و تحتوي القصيدة على خمسة عشر مقطعا، مطلعها وصف لنهر الراين باعتباره نهر تلتقي عنده أنصاف_ الآلهة، وليس هذا فحسب بل يطور هولدرلين هذه الفكرة في المقاطع الموالية ليظهر النهر كتجسيد لبعض أنصاف -الآلهة، رغم تصارعها الدائم مع أنصاف الآلهة الأخرى.

يقول هولدرلين مشيرا إلى العلاقة بين البشر والآلهة:

"بل كما الموكب يسير إلى القران"¹.

ويضيف في الإشارة إلى البدء العظيم الذي يخلد لقاء الآلهة بالبشر:

"عندها يحتفل بالقران بشر و آلهة"².

و في هذا إشارة إلى بداية التوافق رغم اختلاف الآلهة عن البشر بسبب علوها وتفوقها إذ يقود هذا التعارض إلى صورة جديدة وهي ظهور إنصاف- الآلهة والناجحة عن صراع بين الآلهة والبشر، ويبقى المخرج هو التصالح والتوافق بينهما .

إذن نستطيع أن نسمي مرحلة الراين بمرحلة التناقضات والتي ينتابها نوع من

النكوص يسميه هولدرلين بالعودة إلى مسقط الرأس Le Retournement natal.

"وان بدت_ هذه المرحلة في ظاهرها نوعا من التراجع_ فهي أيضا نوع من التوطئة

المنهجية لهذا التوافق بين الآلهة والبشر، فلا انسجام يتحقق خارج أرض الميعاد، فالرجوع إلى نقطة البدء هو ما يحقق هذه المراوحة بين الآلهة والبشر"³، فهي مرحلة نكوص وتقدم، ولا يمكن أنت تحقق دون تدخل الإله الأعظم وهو Zeus سيد آلهة الإغريق، وإن لم يحدد هولدرلين هويته و اكتفى بالإشارة إليه مجازا في ملاحظاته حول أنتيغون Antigone. وبهذا انتهى هولدرلين في قصيدة "الزفاف" إلى التركيب المتمثل في مصالحة الآلهة على البشر"⁴:

"ولهنيهة

تتوازن القسمة"⁵.

¹ - هولدرلين، انشاد المنادى، ص. 97

² - نفس المصدر والصفحة

³ - Alleman .Beda .Hölderlin et Heidegger trad.F.Fedier.presses universitaires de France. Paris.p186

⁴ -Heidegger. Approche de Holderlin.p134

⁵ -Heidegger.Approche de Holderlin .p134.

إنها محاولة لإعادة بناء هذا العالم على أساس التعارض المنسجم L' harmonique L Opposition وهذه النزعة التوفيقية هي التي جذبت هيدغر وجعلته ينبهر بـ "حفل الزفاف هذا الذي قام على لقاء الآلهة بالبشر، و سجل ميلاد قوم يوفقون بين هذه الطرفين النقيضين، وهذا إشارة لميلاد لأنصاف الآلهة، وما هم في الحقيقة إلا شعراء الوجود من طراز هولدرلين. فهذا اللقاء بين الطرفين (الآلهة والبشر) هو ما يجعل الشعراء يقومون بدور المصلح، إنهم يصلحون بين المتخاصمين، وأرض الزفاف أو العيد هي أرض هذه المصالحة. إنها نبوءة العودة إلى مرحلة التوافق، و أية عودة أصعب من هذه.

المبحث الثاني: الشعر و العودة إلى مسقط الرأس.

مسقط الرأس La Terre natale لا يتمثل في رقعة جغرافية بالدرجة الأولى، انه المحدد لموقع الإنسان الذي يشترط فيه الألفة و الأنس، وبذلك يصبح محلا لسكنه الذي يرتبط أساسا بالسكينة .

إنها الأرض التي تتحقق فيها الإقامة و السكن، فيها يجسد الشعر لغة الإظهار و ليس لغة التعبير، وفيها يكون هم الشعراء هو الانشغال بالسؤال عن ماهية الإقامة والدفاع عنها، فالشاعر هو صديق الإقامة الشعرية وهو صديق للأرض.

إن اللغة وما آلت إليها في الأزمنة الحديثة و ابتعادها عن ماهيتها الحقيقية هو ما جعل الإنسان يعيش حالة إستلاب Aliénation لا مفر منها، لقد افتقد مفاتيح الوجود، ولم يعد يملك وسيلة تجعله يحقق الانفتاح المنشود على هذا الوجود. معنى هذا أن الإنسان أصبح مسلوب الوجود، فضياعه هذا لا يشبه الاستلاب الاقتصادي والاجتماعي الذي تحدث عنه ماركس في فلسفته، بل هو استلاب تمثلت نتيجته في سيطرة سيطرة الإنسان النمطي، والإنسان الاستهلاكي، و الإنسان ذو البعد الواحد الذي لا يهمله إلا قولبة النمط المعيشي وتحويله إلى نموذج واحد ووحيد. هذا الضياع ظهر جليا في النموذج الغربي الذي يبدو أبعد ما يكون عن الانفتاح على تجربة الشعراء والتي تسعى إلى استعادة مسقط الرأس.

قلنا إن مسقط الرأس هو لغة إظهار و ليس تعبير وهذا المفهوم تجسد ضمنا عند قدامى الإغريق الذين كانوا يعتبرون لفظ البوزيس poesis مرادفا للينبوع الذي يمنح كل مشروع إنساني شعرا كان أم فنا أو سياسة.

وهنا ينكشف أماننا التجديد، ونقف أمام فكر متجذر في تحديد معنى مسقط الرأس وإعطاء قيمة للبدء ، فالينبوع هو الأصل الذي تتفرع منه كل الفعاليات الإنسانية، والمسقط هو الأصل الذي يحدد معاني الأشياء ويوزع أدوارها، إنه شاهد على الانبثاق بمعنى

الحضور. وفي هذا يقول هيدغر "فعل الإظهار هو قبلا نوع من الدخول في الحضور"¹. إن مسقط الرأس يتكلم لغة الإيراغونيس أي لغة الإظهار، فهو الشعر الذي لا يظهر إلا مستترا لكي يمنح الفن أصالته ورفعته. والشعر هنا ليس مجرد قول شعري أو لقصيدة، بل هو اسم آخر للوجود. إن الإنسان ذلك الكائن المبدع والمفكر، وذو البعد السيكلوجي المعقد والغامض ليس له قيمة له أمام قوة الأرض ومثانة لغتها، هذه اللغة التي تسيطر على أبعاد الكائن البشري، وهي من يرسم حدود حركاته وسكناته. فاللغة أقوى من الأرض بل هي من يمدّها صلابتها ومكانتها، فلا أرض بدون لغة تاريخية تعطي للشعب مسكنه، ولا وجود للغة دون القول الشعري، الذي اسماءه الإغريق باللوغوس logos ، فهو الذي يعطي لمسقط الرأس الدفاء والحميمية، ولهذا يعلق هيدغر بالقول "الشعر العظيم الذي به يدخل شعب ما إلى التاريخ، هو ما يمنح لغة هذا الشعب شكلها"². والشعر هنا و كما قلنا ليس هو لقصيدة المنظومة، انه إظهار أصيل يكشف حقيقة الوجود والموجود ، إنه دافع قوي للكلام ولإظهار المعاني وتفجير لمكوناتها، هذه المكونات التي تأخذ طابعا شعريا يأخذ قوة صور أهمها العمل الفني الذي هو ترجمة راضية ورفيعة لهذا الوجود. فالشعر تجسيد لكل هذه المعاني، وبه ينكشف سر الحقيقة، وينكشف نمط آخر للحضور، هذا الحضور الذي لا يقاس إلا بمدى قدرته على كشف الوجود المستتر. فالشعر هو ابعده ما يكون عن أقوال منظومة، إنه اسم آخر للوجود سيما إذ ارتبط بمسقط الرأس، فهيدغر يعتبر "الوجود، بما هو ظهور انكشاف"³.

وهذا فيه دلالة أخرى على أن القول الشعري ليس تعبيرا وإنما هو إظهار، فحقيقة الشعر هي نفسها حقيقة الوجود لأنها الانكشاف الداعم لمختلف أشكال الحضور الذي هو بدوره محل إقامة الموجود، فلا مجال لظهور الموجود وتعيينه إلا باستقراره في دائرة الضوء

¹ – Heidegger : Question, II, op.cit. p.257.

² Heidegger – Introduction a la métaphysique, op.cit, p.176

³ –Ibid., p.110

التي تمده بهالة نورانية تكشف أبعاده وتمده بإمكانية البروز مانعة إياه من الانسحاب الذي يؤول به إلى العتمة أي اللوجود. إن التيه الذي يعيشه الإنسان لا يعني اللاحقيقة، انه مجانية لموقع الإنسان الحقيقي، الإنحجاب الذي مورس على الوجود لا يتعلق بالزمان و المكان بقدر ما يتعلق بالاستتارة بضوء الشاعر الأصيل الضروري للانفتاح على العالم.

وفي تعيين مسقط الرأس دلالات كثيرة قد لا تخضع لمعطيات مادية تتعلق بالموقع الجغرافي و الأرض بقدر ما توحى إلى أرض البدء التي لا تشبه غيرها وما هي بطبيعة أو يسيرة المنال، إنها لقاء مع النور الذي يشبه ذلك الوهج المقدس الذي عرفه قدامى الإغريق و الذي فيه أيضا شيء من أرض "سوابيا" التي ترعرع فيها هولدرلين والتي تتقاطع فيها الأرض و السماء و كل أركان المكان تحمل سر عناصرها، ويملك القدرة على إنارة غيابها شاعر مقنن مستنير مؤهل لاخترق الظلام.

يقول هيدغر: ولغة الشعر لا يمكن مصادفتها عشوائيا بل أن تمظهرها وانتشارها هو ما سماه هيدغر بلغة الإيراينيس Ereignis ، و التي هي لغة الإظهار وهي الشعر في أصلته. وهذه المواصفات للغة الشعر كفيلة بإيقاظ الأفئدة، وتفجير ينبوع الحقيقة، وإضاءة الوجود ومسقط الرأس. ويضيف هيدغر " لقد سمينا أرضا الاتجاه الذي ينحوه الانفتاح، من أجل أن يتوارى فيما هو يظهر"¹. فلا شيء ينير عتمة العالم إلا انبثاق شعري أصيل مقدس لا يخضع لزمان ولا لمكان و يتجاوز كل النبوءات ويتخطى كل المقدسات، فالشعر سابق لكل قول. ومن هنا ندرك أن الشعر ليس لغة قول أو تعبير إنما هو لغة إظهار.

وقداسة الشعر تتجلى في حضور الجمالية و غزارة المعاني، وفي غيابه يكابد الإنسان متاعب شتى في حياته تجعله يتأرجح بين تعقيدات " اليومي " " Le quotidien " وبين انغماسه في التفاصيل الشكلية والسطحية التي تبعده عن اكتشاف كنه الوجود الحقيقي.

¹ Heidegger, Les chemins qui ne mènent nulle part, p.49

وسر قوة الشعر هو تلك الحميمية التي تجذب الإنسان فتجعله يفتح على الوجود بصورة تلقائية فيها الكثير من السلاسة و الشفافية، وهذا ما يكشف عن حقيقة الشعر الفعلية فلغة الشعر ليست ذلك التأويل النفسي وليست التعبير المشفر، إنها إظهار وليست وصفاً، إنه الشعر الذي يغذي اللغة ويحدد مسارها، وإنها قدرة الشعر الكاشفة عن الوجود و التي من تجعل منه ما سماه الإغريق بالفيزيس أو الأليثيا، وهي قوة الانبثاق المشتقة من الشعر.

وارتباط الشعر بالمقدس لا علاقة له المفهوم المقابل للشعر وهو كل ما يرتبط بالديوي أو المدنس، إنها قداسة من طراز أصيل لا يدرك صفاءها إلا الشعراء، وفي ذلك يقول هولدرلين:

"يتعين أن يرحل في أوانه

من تكلمت الروح باسمه"¹

و هو يقوم بهذه المهمة المقدسة التي تتجسد في إنارة وكشف الوجود لا يمكن للشاعر أن يسلم من مخاطر هذه الرسالة، فالدرب لا يخلو من العقبات لأن من الصعب أن تتكفل بكشف وتسمية هذا الوجود الأصيل الذي لا يحب الظهور ويجعل من التواري لعبته المفضلة، وهنا يظهر الجانب التراجيدي للشاعر الذي لا يرضيه صمت البشر وسلبيتهم، فهذا الصمت هو من يلحق الوجع بالشاعر، وهو من يقوي فيه حب التمسك برسالته، هذا الحب والعتاء ممزوج بألم عميق ومعاناة يدفع هذا الشاعر إلى مواصلة مهمته حتى وإن لم يكن حاضرا لقطف ثمار إنجازه، إنها تضحية لا يعرفها إلا ذوي الهمم العالية ولذلك يقول هولدرلين :

-1 Heidegger Approche de Hölderlin , op.cit, p .129

أيها الكائن المقدس! غالبا أفلقت راحة الألوهية النفيسة فيك
 وبسبب إثمي، في أعماق الحياة الأكثر إسرارا
 تعلمت جم الألم
 أخلد للنسيان آه، أخلد له!
 ومشابها السحائب هنالك،
 وترتاح، بالإيماض بعد،
 في بهائك، أيها النور
 الظافر بالعدوية¹

يكشف هولدرلين و يشير إلى الألم الذي يعتصر الشاعر و هو بصدد أداء رسالته،
 وإن كانت هذه المعاناة صعبة التحمل فهي من يعطي للشاعر القدرة على المضي واحتمال
 الألم .

وهذه المعاناة لا تولد إلا من رحم الأرض التي لا تعني الصلابة والاستقرار فحسب
 وإنما قوة البدء والانطلاق أيضا. إنها أرض شيدت بقوة أهل السماء لكي تكون قابلة للإقامة
 وحمل المقدس في أرجائها، فالأرض ليست أرضا إلا بوصفها أرض السماء.
 إن المعاني التي وظفها هولدرلين في قصائده هي من حفز هيدغر إلى إدراج هذه
 القصائد كمفاتيح مهمة لإدراك جوهر الشعر.

ففي قصيدة "هجرة الطيور" يقول هولدرلين:

هجرة الطيور أترجع إليك ؟

وهل بعد تمضي ؟

مجدة في طلب ضفافك، مثني

أسفار الأفلاك ؟

¹- هولدرلين إنشاد المنادى، تلخيص و ترجمة بسام حجار، المركز الثقافي العربي ص 128

زفير النفحات المرجيات
 أيرفع أخيرا لجيل الساكنات؟
 وهل لنا أن نرى في الشمس لمعان ظهور
 الدلافين الصاعدات من الأعماق الغائرات
 نحو الجديرات النيرات؟
 ومن أيونيا ذات الأزهار، هل آن الوقت؟
 لأن دوما بالربيع
 حنين يتجدد والحب الأول
 يصحو في فؤاد الرجال مع تذكرات عصور النسيان أفد إليك أيها الأرخبيل
 ملائيك في الصمت، سلامي
 رائد الأسلاف القديم¹ "من أرخبيل المراثي"

كلمات هذه القصيدة توحى بأن هولدرلين بصدد الحديث عن مكان حميم وعن وطن مألوف، وأرض قريبة من الوجدان، ولكن في نفس السياق يظهر أن هذه الأرض بقدر حميميتها ووضوحها، هي محتجبة وغامضة وغير ممكن الوصول إليها، فتمتزج لدينا في سياق واحد الحميمية بالغموض والسرية، قد تبدو الأمور واضحة ومألوفة للوهلة الأولى، ولكن الحقيقة هي غير ذلك، لأن تساؤلات شاعر في القصيدة توحى بدنو المعنى رغم استحالة فهمه، وفي استنطاق رموز الطبيعة من بحر وتضاريس وأشكال الحياة محاولة لإيجاد رد على تساؤله الوجودي. أيعقل أن يكون الإحساس بمظاهر الأرض المختلفة يحمل القرب والضياع في أن واحد؟

إنها رحلة بحث عن أرض بعيدة المنال لا يعرف مسالك الوصول إليها إلا الفيلسوف والشاعر، وحتى إن وجدت هذه الأرض، فمن يدرك قداستها ويعي كيف يسكنها في أعماقه؟

¹ - نفس المرجع السابق، ص 140.

لأن الأرض ليست مظاهر الطبيعة ولا عناصرها، إنها ذلك الإحساس العميق الذي يشعر الموجود بأنه موجود هنا مدرك لذات هذه الأرض وما يدور حول فلكها. وفي أعماق هولدرلين الوطن Das Deutsche أي العنصر الجرمانى المتفرد بخصوصيته، فالأرض الجرمانية هي أرض الشعري Le Poétique الذي يوقظ حنين الشاعر، ويرى هيدغر في هذا الإحساس بالأرض لدى هولدرلين بداية التاريخ. ومع ذلك فإن هذا الإحساس بالأرض أو بالوجود فيه الكثير من الغموض والالتئام، فأنت قد تلتقي بأشخاص تربطك بهم حميمية ولكنك في ذات الوقت لا تعرفهم. إن الإحساس بالمألوف لا يعني إدراك حقيقة الوجود ولكن كيفية إدراكه هي من تفرض نفسها علينا.

لقد لخص هيدغر تاريخ الفلسفة في البحث عن الوجود، واعتبر أيضا أنه من الصعب بلوغ حقيقة هذا الوجود وبلوغ مسقط الرأس لأنه قد يتحدد بمعاني مختلفة كالأصلي، والأليف، الأم، الوطن.

وتعدد هذه المعاني هو تيه في حد ذاته لا يضيء دربه إلا الشعر الذي هو المرادف الحقيقي لمسقط الرأس، إذ فيه معنى للحميمية والدفء وهو الوحيد الكفيل بإخراج مكونات الإنسان ووضع اليد على أوجاعه، وتحديد وجوده، ولعله هو أكثر ما يجسد صلابة هذه الأرض، ويرفعها إلى مقامها الحقيقي باعتباره ينبوع الأصالة.

إن ما نسميه بالوطن، قد صمم خصيصا لنا وقد رسمت معالمه فينا مسبقا، ولكنه في ذات الوقت فهو بعيد المنال، وما التاريخ في حقيقة الأمر إلا هذا الاستيطان الذي ينشده الكائن، استيطان لا بمعنى الاستحواذ على قطعة أرض بغية الاستقرار وإنما هو موطن الاستقرار الوجودي، لا وطن بدون هذا الانفتاح على الوجود، والأرض التي تحقق هذا الشرط هي من يمكن تسميتها بالوطن. وبما أن الشاعر هو صاحب هذه المهمة الشاقة، فيمكن القول أن حقيقة الشعر هي حقيقة الوجود، فهو من يدعم الانكشاف، ويرسخ الحضور،

وحقيقة الموجود هو إقامته في هذا الحضور. ومسقط الرأس أو ارض الانكشاف هو موطن لا يدركه إلا الشعراء. فهو نقطة البدء والانطلاق وهو نقطة العودة والإقامة. ولعل ترحال هولدرلين من مسقط رأسه (سوافيا) وتجواله في مختلف البلدان سيما بلدان الجنوب (اليونان وفرنسا) وعودته إلى بلده دليل على أن الشاعر الحامل لقدرة الكشف الوجودي لا غنى له عن هذا الينبوع الأصيل. مسقط الرأس، لأنه هو من يحقق شروط المقدس، وهو من يستوفي أركان الوجود.

ومن أجل تمكين الشاعر من الانفتاح على الوجود وجب الوثوق في هذه اللغة الكاشفة التي تفيض بالدلالات اللامحدودة، فالشاعر الحق يملك رؤية فنية وشعرية تؤسس لإقامة شعرية لامتناهية. ومن بين المظاهر التي قد تدعم هذه الرؤية الخاصة و لدلالات ارض المسقط وقوة سطوتها على الوجود هو الاحتفالات التي ما هي إلا تجسيد وتذكير وإعادة إحياء للعلاقة الحميمة مع الأرض كأرضية لإدراك الوجود. إنها نقطة الالتقاء بين الأرض والسماء وهي نقطة التحول من التيه إلى النور. وقصائد هولدرلين تحوي على معاني مبهجة أحيانا، وواصفة لطقوس الاحتفال، وتتحو إلى الكآبة والمرارة أحيانا أخرى، إلا أن يوم العيد هو يوم مميز سيسجل ولادة مرحلة جديدة، انه عقد سلام وصلح مع الوجود المختلف. في قصيدته "يوم عيد" Jour de fête يستنطق هولدرلين هذا اليوم الذي يجسد اليوم الفيصل، اليوم الذي لا يشبه ما قبله وما بعده من الأيام فيه كسر للعادة وتجديد للحياة. واختياره ليوم العيد ليس بالاعتباطي أو الجزافي إنما يقوم على عدة دلالات استعرضها في هذه القصيدة:

في أيام العيد

نساء هذه الأماكن سمرارات فانتات

تسرن فوق أرض مخملية

في أيام آذار الربيعية

عندما يكون الليل والنهار سيان
 و تحت ضلال الأشجار
 تمضي الذكريات المزهقة
 والأحلام الذهبية
 تداعبها نفحات هادئة وديعة¹

قد ذكر هنا النساء السمرات هنا إشارة إلى النساء اليونانيات أو كما يحلو لسكان شمال أوروبا تسميتهن نساء الجنوب، فحقيقة أن النساء يكن في كامل زينتهن في هذه المناسبات، لكن الحديث عنهن هنا لا يقصد به وصف لتفاصيل العيد ومختلف بهارجه، وإنما هو لحظة يتوقف فيها الإنسان ليكسر كل العادات ويعوض كل الممارسات المألوفة، إنها لحظة التوقف عن العمل المرادف للعطلة، أو يكاد يكون النقيض لمفهوم العمل، فمجازيا العيد هو مخالف للنشاط اليومي المعتاد. هذا التوقف أيضا قد يجر معه أيضا موقف الحيطة أو التوجس، أي إحداث وقفة مع الذات ، وقفة مراجعة وحسم لموقف مع الوجود. والمقصود بالوجود هنا بالوجود الذاتي ليس الوجود الذاتي المتعلق بالشخص، إنما يتجاوز ذلك، حيث يولد عنصر الانبهار² l'étonnement، هذا الشعور الذي يززع كل المألوف، ويجعل الوجود L'être يصبح علاقته بالموجود L'étant.

إنها دهشة تدفع إلى التساؤل الذي يحاول إعادة النظر في اليومي Le quotidien بكل الممارسات الروتينية وبكل العادات والسلوك الآلي المتكرر، إنها لحظة حاسمة توقف عجلة الزمن وتخلط أوراق الإنسان وتحاول دفعه إلى ضبط مكانه في الوجود وعلاقته بالموجود، وكأنها لحظة استيقاظ من غيبوبة عطلت إحساس الإنسان بوجوده وجعلته ضائعا في متاهة اليومي، بكل ممارساته النمطية وسلوكاته المتكررة. فنمط الحياة هذا جعل الإنسان ينسى وجوده، ويغيب عن كل ما له صلة بدلالة يوم العيد و الذي هو ناقوس يبدأ في جذب

¹-Heidegger. Approche de Holderlin.p129.

²-Ibid.p131

انتباه الإنسان إلى خطر نسيان وجوده وتحسيسه بمختلف تمثلاته وبالتالي ضرورة الارتقاء بهذا الوجود إلى ما هو أكثر صدقا وأكثر عمقا.

إن أكثر عائق للانفتاح على الوجود هو التعود L'habituel الذي يعمل على تشويش صورة الوجود الحقيقي ومحو كل صورته، لكي يبقى بعيدا عن الانفتاح.

وفي نظرة ابعده وأعمق يظهر يوم العيد، بمثابة اللقاء بين الآلهة والبشر، لقاء في ارتباط وثيق ويظهر ذلك عند هولدرلين في المقطع الثالث من نشيد الراين يقول "Hymne au Rhin"، "عندما يحتفل البشر والآلهة بخطوبتهم"¹.

فتظهر دلالة يوم العيد هنا بسيطة وعميقة في آن واحد، فالتقاء الآلهة بالبشر هو ولادة لأولئك الشعراء الذين يحملون مشعل كشف الوجود، فتلك هي اللحظة الحاسمة التي تشهد ميلاد أنصاف الآلهة. إنها لحظة ولادة الشعراء، إنه اكتشاف المقدس، وفي هذه اللحظة بالذات يستيقظ الوجود

الآن يطلع النهار

وليكن المقدس هو كلمتي².

ويوم العيد هو ميلاد مرحلة جديدة يستتير فيها الوجود، وشروق الشمس هو بشارة لحقبة جديدة مستتيرة، لم تكن لتكون لولا لقاء الآلهة بالشعراء، هذا اللقاء هو شرط انقشاع الظلام واستتارة الوجود، لأن من يشهد هذا العيد أو هذا التشريف والتكليف في آن واحد هم الشعراء الذين تكمن مهمتهم في الكشف عن الوجود، ورسالة هؤلاء هي تسمية المقدس، ويظهر في قول هولدرلين. "نحن إشارة سماوية"³ وهذا معناه على الأرجح أن مهمة الشعراء باعتبارهم أنصاف الآلهة ليست هي استبعاد الآلهة، بل اكتساب ثقتهم، التي بدونها لا يمكن أن يحدث اللقاء مع الآلهة.

¹-Ibid.p131.

² - Ibid.p131.

³ - Ibid.p133.

ولكن ليس من السهل أن يكون الشاعر كاشفا للوجود، إنها مهمة صعبة ولا يستهان بتعقيدها، لذلك فهي تجربة يرافقها الكثير من الألم والاعتصار، وهي احتراق للوجدان لا يقدم عليه إلا ذوو الهمم العالية، إنهم الشعراء الذين قد لا يسلمون مع ذلك من غدر بعض الآلهة، فالإنسان كالألهة يتعرض للشك، وقد يقع في فخ الانقسام¹ وفي هذا تكريس وإعادة الاستلها من الميثولوجيا الإغريقية التي تجسد صراع أنصاف الآلهة مع الآلهة نفسها إضافة إلى إدخال العنصر البشري في هذا الصراع، أي أن هذا الانقسام والصراع قدر قد يؤدي إلى الانغلاق الوجودي والنتية، هذا الانغلاق هو مترجم لانقطاع الرابطة بين الإلهة والبشر، وقطيعة كهذه هي من تغرق الوجود في الظلام الحالك، وتحول حياة الإنسان إلى منظومة آلية ونمطية بعيدة كل البعد عن نطاق الوجود الحقيقي .

ورغم ذلك قد تحدث لحظة وصال بين الآلهة والبشر، فيظهر المقدس وبيعث بنوره، إنه بركة المقدس *La Benediction du sacre*¹. وفي هذه اللحظة بالذات يخطف الشعراء هذا النور وسيتركون بهذا الرضا ليتمكنوا من إيصاله للبشر، إنها لحظة انفتاح على الوجود وجب اغتنامها في يوم العيد، حيث يأخذ هذا اليوم أبعاده من عطايا المقدس، و يعود الوجود إلى منابعه الأصيلة و الأصلية، إنه يوم سلام، سلام يفضي إلى الانفتاح على الوجود، أو إنه يوم فريد ولحظة نادرة تتفق فيه الآلهة مع البشر كسابقة. و هنا تقوم "أنصاف الآلهة" بإنارة الوجود، فموقعهم يتأرجح بين تفوقهم على البشر وخضوعهم للآلهة، ولهذا وجب أن يعوا تماما هذه المكانة ويحسنون استغلالها لإتمام مهمتهم كأنصاف آلهة أو كشعراء يحسنون الإنصات ويدركون كيف يتم إنارة الوجود، ويختارون اللحظة الحاسمة والمناسبة لذلك .

ولعل أنسب مقام وزمن لتحقيق ذلك هو يوم العيد الذي يجسد اللقاء بين كمال الآلهة وبين لاكمال أنصاف الآلهة، ولعل هذا التباين هو الذي يحقق التوازن، ويمكن أنصاف

1-Ibid p135

الآلهة من إدراك الوجود والكشف عن قيمته وحقيقته للبشر كي يتمكنوا بدورهم من الإقامة في هذا الوجود. إن التوازن لا يتحقق إلا بقاء كائنات تجمعها الفوارق ويوحدها التباين ولا يعني التوازن هنا محو كل الفروق والإختلالات بين الآلهة والبشر، وإنما يعني تموضع وعودة كل إلى وجوده الحقيقي، ووجوده الخاص به، وهنا ينسج القدر خيوطه وتظهر نقاوة هذه اللحظة وصفاء اللقاء.

"من السماء

يأتي نشيد القران"¹

يرى هيدغر أن هذه اللحظة التي عبر عنها هولدرلين ما هي في الحقيقة إلا اللحظة المفتاح التي يستتير فيها الوجود، وتتحقق الإقامة لأنها تتضمن الاستقرار الذي لا يتحقق إلا في يوم العيد. إنها اللحظة الحاسمة التي يتحقق فيها الوجود والتي لا تتم إلا في أرض مسقط الرأس أو أرض الميلاد لأنها ينبوع والبدء ولأنها أيضا أرض مهياة لاحتفال الآلهة، ومكان يفي شروط إنارة الوجود، فتلتقي السماء بالأرض وتذوب الفوارق في لحظة فارقة لا تشبه ما يسبقها ولأما يليها.

ولعل أبرز ما يبلور هذه الأرض هي اعتبارها العنصر المادي في العمل الفني، والقاعدة التي تقوم عليها العالم، ويعني هذا إظهار الأرض وجلبها إلى الانفتاح: " فالعمل الفني يجعل الأرض أرضاً"². وقدرة الأرض هي احتضانها لهذا المظهر الفني الذي يدعو إلى الانفتاح على الوجود، وقد يحمل طابعا ماديا لأنه نابع من الأرض وفي الأرض، إلا أنه يبقى عاملا دافعا على الانفتاح. فالعمل الفني عند هيدغر يجمع بين العالم و الأرض، فلا تتكشف الحقيقة إلا في الإنحجاب الذاتي للأرض.

وأبرز فنان تشكيلي كان يميل هيدغر لتأويل لوحاته هو فان كوخ Van Gogh ففي

لوحاته تتجلى " الحقيقة حدوثا، وتظهر حقيقة الموضوع، فلوحة" الأحمذية Les Godasses "

¹ - Ibid. , p135.

²- Heidegger l'origine de l'œuvre D'art , in chemins , p19.

تخضع إلى قراءة تأويلية تتجاوز فراغ الإطار إلى النظر في الإستعمالية، أو التسخير بوصفه موجودا . هي لوحة فيها إشارة إلى علاقة الأحذية بالمزارع، بالأرض، فتحدد ماهية الأشياء، فكل عمل فني يدفعنا إلى التأويل والاستنتاج و إذا كان العمل الفني أحد عناصر الأرض المادية التي تدفع إلى الانفتاح على الوجود، فكل الأعمال الفنية عوالم مختلفة¹.
ويضيف هيدغر في نفس السياق: "وفي الحذاء يتأرجح نداء الأرض المكتوم، هبتها الصامته للحب الناضج. هي الأداة التي تنتمي إلى الأرض و هي محروسة في عالم الفلاحة ومن هذا الانتماء المحروس تنشأ الأداة نفسها من اجل الاطمئنان في ذاتها"².

¹ - ibid., p 63.

² - هيدغر ، أصل العمل الفني ترجمة أبو العيد دودو ، منشورات الأختلاف 2001 ص 51.

المبحث الثالث: المنعطف الهولدرليني وفهم الزمانية.

جل جهود هيدغر كانت منصبة حول الدفاع عن قيمة الشعراء وعن دورهم ردا عن تلك المحاولات التي كانت تستصغر دور هؤلاء، و تحصرهم في مجالهم التأثيري على مجال الوجود. فكثيرون هم الشعراء الذين اعتبرهم هيدغر حاملين لمشعل إضاءة الوجود ولكن هولدرلين استأثر بحيز كبير من اهتمام هيدغر الذي رأى فيه مواصفات الشاعر المنقذ. يقول هولدرلين: "أكيد أن الأساطير مفيدة لأنها تذكر بالمتعالى لكن الحاجة الماسة إلى هذا الذي يؤول الأساطير المقدسة"¹.

فمقولة بهذا العمق وقدرة على اختراق معناها تترك العقل أمام أفكار متعددة ورؤى لا حصر لها، تعمل على اعتبار الشعر اللغة الأصلية للشعوب التاريخية، واعتباره مسقط الرأس. Terre natale ولفك غموض هذه الرؤية وجب فهم العالم، والتاريخ، والثنية، والكلام الإنساني المنبثق من اللغة والعائد إلى اللغة.

ولكن كيف يمكن إذن الاقتراب و العالم من خلال اعتبار الشعر لغة؟

إذا كان للقول الشعري القدرة على الإظهار والتحرير والإحضار، لزم عن ذلك أن يكون مرتبطا بمنهل يعج بذخيرة لغوية قد يشوبها اللبس والغموض، ورغم ذلك فهذا ما يعتبره هولدرلين " صوت شعب ما " وينسحب عن كل ما له علاقة بماضي الشعب وانتمائه إلى الموجود في كليته

¹ – Heidegger , Approche de Hölderlin , op.cit, p249

إلا أن هذا الصوت لا أثر له في غالب الأحيان، لأن الصمت هو سمة هذا الوجود الزائف المحتاج إلى من يقوله و يحرره ويبرزه إلى الواجهة ويستتطق الكينونة. وكتابات هيدغر لا تكاد تخلو من الحديث عن دور الشعراء وأهميتهم في التصدي للمد الميتافيزيقي، لأنه على الشاعر أن يحل محل الآلهة المنسحبة بعد سيطرة الميتافيزيقا وهيمنتها على الفكر مستعينة بلغة تقنية حولت الوجود إلى كيان مغيب وفاقد لمغزاه، ونداء الشاعر وحده هو الوحيد الذي يحمل إمكانية تعويض الآلهة، وإن كان لا بد من هذا فهولدرلين هو الشاعر المحنك الذي يحسن تحويل قصيدة إلى عمل فني يملأ فراغ الانسحاب ويحل محل الآلهة، ولهذا اتضحت ضرورة الانعراج نحو الأصل وبلوغ ينبوع البدء الذي كان غزيرا في تدفقه ومتعددا في دلالاته .

وإذا كان هيدغر قد اختار هولدرلين فهذا لان هذا الأخير جعل للشعر مكانة عليا تمكنه من تجاوز الميتافيزيقا، فالشعر بكل بساطة يملك من القوة والعمق ما يمكنه من تقويض المنظومة المقولاتية ويكشف الغطاء عن الوجود المتخفي .

لم يكن هولدرلين في أعماله يحمل نية تقويض ومجاوزة الميتافيزيقا لان شعره كان تعبيرا عن معاناته، ولكن هيدغر هو من رأى أن هذا العمل غير المؤلف يملك القدرة على تغيير ما هو قائم وإحداث رجفة في فهم الوجود، فنداء هولدرلين إلى مجاوزة الميتافيزيقا لم يكن مقصودا، إلا أن أسلوبه الشعري المتفرد ومقدرته على الإحاطة باللغة وتطويع أدواتها لدفعها على الانفتاح على الوجود هو من أعطاه هذه المكانة في اعتقاد هيدغر.

وأكثر ما يشد الانتباه في أشعار هولدرلين هو ذلك الغياب لإبعاد الزمن، والزمانية عند هيدغر هي صفة الدازاين المتزمن أو المندمج في زمانه، بمعنى ذلك الشعور الذي ينتاب الكائن وهو يحي هذا الزمان بشكل أصيل وواع، خلافا للفكرة القائلة أن الزمان تيار متصل يجري في اتجاه واحد من الأزل إلى الأبد. إذ ينفي هيدغر الاعتبارات الفيزيائية

والنفسية التي توحى باتصال الزمن ويعتبر أن الزمان ما هو إلا وحدات منفصلة تشكل شعور الإنسان بها وإدراكه لها وهذا ما نسميه بالزمانية.

يفسر هيدغر الزمانية على أساس الهم الذي يعد بمثابة المحرك الداخلي لأنات الزمن الثلاث، ومن منطلق هذا المفهوم غير الاعتيادي بالنسبة للميتافيزيقا الغربية وضع هيدغر معايير أخرى أصيلة تتلاءم مع نظريته للزمن، ولقد وجد في هولدرلين ضالته لأن إنجازاته تصب في هذا الاتجاه. هذا الشاعر الذي يعتبره هيدغر ذا مكانة غير اعتيادية في تاريخ الفكر الإنساني، لذلك لأنه مفكر المستقبل، فلا يمكن تصنيفه ضمن ما هو تاريخي بالمفهوم الكرونولوجي. انه شاعر يحمل هم المستقبل والنبوءة، ولكن المستقبل الذي يتحدث عنه هولدرلين يختلف مفهومه عن المستقبل المرتبط بعالم التقنية الذي شوه معالم الوجود وأخفى جوهره. هولدرلين هو رجل من طراز آخر، ولا يمكن أن يشكل جزءا من بنية العالم بمنظور الميتافيزيقا الغربية، فهو يرى أن الإنسان الحالي قد فقد التواصل مع الآلهة وهذا الانقطاع هو من رماه في التيه، ولاسترجاع هذا التواصل وجب التمثل بالحقبة الإغريقية القديمة ما قبل سقراط التي عرفت ارتفاع مؤشر الوجود، إنها مرحلة مثالية تتوفر فيها كل مواصفات الوجود الأصيل .

علينا إذن استرجاع ظروف هذه الحقبة واستعادة ذلك الخط الواصل بين الأرض والسماء، وفي فكرته هذه لا يجعل هولدرلين من المعاصرين نقيضا للقدماء، ولكن الذي يحاول استدراجنا إليه هو تناقض النمط الغربي الحديث مع الطابع الشرقي لقدامى الإغريق. وهذا ما أراد هيدغر عندما قال أن " الفلاسفة اليونان القدامى يحملون حدسا مبهما لكنه غير مشوه بالوجود الحقيقي وراء موضوعات التجربة القاصرة"¹.

وفي هذا إشارة إلى قصور الفكر الأوروبي الحديث والمعاصر في الوصول إلى تجديد الكينونة الحقيقية، والتي افترضت وجودها المتقابلات، الأمر الذي لم يطبع الفكر

¹ مارتن هيدغر في الفلسفة و الشعر، ترجمة و تقديم عثمان أمين، الدار القومية للطباعة والنشر، ص 27 .

الإغريقي القديم الذي ميزه الحس الخالص و النظرة الصافية و عكس الفطرة الخالصة و الاندفاع اللامحدود لروح تتطلع إلى الوجود الحقيقي، وجود لم تكبله الممارسات العقلية الضاغطة ولم تلغها التقنية التي ظهرت بوادر سطوتها مع الفكر الأرسطي، حيث نمطية الاستدلال و برودة الحساب و جفاف التخطيط، فلم يعد للوجود مكان خارج قواعد المنطق و بدهة قوانين الرياضية. فكل هذه العوامل جسدت هيمنة المطابقة على الفلسفة والتي بدورها حبست الوجود الحقيقي و لم تتسجم مع صوت كينونة الكائن.

اذن وحده شعر هولدرلين هو من يملك تلك القدرة على إخراج العالم من تيه الوجود، إنه الشاعر الذي عرف كيف يربط الأرض بالسماء، و الفاني بالمقدس، مجسداً بذلك جوار الفكر بالشعر.

ولكن في هذا الجوار قلب هولدرلين المعطى الزمني، إنه الحدس الذي يسبق أية فكرة فلسفية فكل نظرية عظيمة ما هي في الحقيقة إلا حدس أولي تحول إلى استدلال منطقي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الشعر يستدير دائماً نحو وجهة مستقبلية ويضيف هيدغر أن أشعار هولدرلين ليست بالنزعة الذاتية والوجدانية إنما هي رؤيا مفتوحة على المستقبل، إنها نداء للوجود ودعوة للانفتاح على نبوءة تفر بالمستقبل.

وبالفعل في قصيدته خبز ونبيذ Brot und Wein يقر هولدرلين بأن مهمة الشعراء هي سابقة للزمن، فهؤلاء هم الذين يحملون شعلة المقدس و الذين يغيرون القدر ويعيدون حباك ملامحه.

وعبارة " سابقة للزمن " Vor der Zeit! " تعني ما قبل الزمن الفيزيائي الذي يمهد للزمن الوجودي، الذي فيه استشراف للمستقبل. والأسبقية الزمانية للشعر عن الفكر، فكرة يؤكدها هيدغر مستشهداً بشعر هولدرلين.

وبهذه الصورة يصبح الشاعر هو المرآة التي تعكس ظل المستقبل على الحاضر، والشاعر وحده هو من يلبي نداء الوجود، لأنه يحسن الإنصات، ويحسن اختيار مكان وزمان

لقاء الأرض بالسماء، تلك اللحظة التي فيها العبور إلى الوجود الحقيقي. فغالبا ما يذكر هولدرلين في أشعاره ما يستحضر آثار للآلهة المنسحبة والتي يوجه لها نداء قصد إعادة إضاءة الوجود، وبهذا يكون قد شق الطريق للبشر لإتباع آثارها.

وفكرة "موت الآلهة" عند هيدغر لم تكن وليدة فكره إنما قد أخذها من نيتشه، وهو أن يفهم الفكرة فهما تأويليا يخرج عن الفهم السطحي لبعض "الأصوليات الدينية". والغرض من هذا هو تحرير قداسة القيم من سلطة المؤسسات الدينية والتراثية، وبهذا يمكن العودة إلى قيم مرحلة قبل السقراطية، فتطابق الحقيقة والالوهية أغرق الوجود في قيم مطلقة كان من الصعب التملص منها، وكان من الضروري تدمير هذا الخطاب اللاهوتي الذي عطل الفكر وحصر الوجود بل وغيبه، وبذلك أمكن للإنسان أن يتحرر ويتحول إلى قدرة إثبات فاعلة. ومفتاح هذا الوجود يتمثل خصيصا في الرجوع إلى الفن بوصفه منطق العالم ولغة الوجود، وما أحوج العالم إلى مظاهر الفن الإغريقي القديم، هذه الحقبة بكل تمثلاتها الإبداعية استطاعت أن تطل على الوجود في لحظة كان لقاء الأرض والسماء هو السمة الغالبة.

وبهذا يخلص هيدغر إلى أن التاريخ أو الزمن الكرونولوجي الذي بنيت عليه الميتافيزيقا الغربية زائف وقاصر، ولا يمكن أن يعد معيارا لأن تاريخ الوجود بالنسبة إليه هو التاريخ الرسمي للميتافيزيقا.

المبحث الرابع: الشعر والإقامة في اللغة L Habitation Poétique .

الشاعر يسكن الإنسان أو الإنسان يسكنه شاعر. كلمة سكن يستعملها هولدرلين وهو مدرك أن الإقامة بكل معانيها تستدعي شروطا عدة أهمها الأمان و الاستقرار، كيف يمكن تحقيق ذلك؟ وهل الإقامة هنا مرادفة للسكن المادي الذي يعتبره هيدغر سكن لا يحكمه استقرار ولا أمان في عصر السرعة والتغيير و التنقل و التي هي السمات الغالبة على الواقع الإنساني؟ و هل تستطيع طبيعة العمل "غير المستقر"¹ ترك فسحة للشعر؟ الشعر الذي لم يعد يقرأ و ينظم بل هو أصبح خاضعا لآلات الطبع، ولآليات البث على الأثير أو الشاشة، فتحول الشعر بذلك إلى مجرد رفاهية فكرية أو فرع من فروع الأدب، وكثيرون من يعتبرونه ضربا من ضروب الخيال الجامع الهارب من قيود الواقع.

إن الواقع يبين أن الشعر تتحكم فيه وسائل الإعلام الموجهة والصناعة للرأي العام والمقولة للاتجاه الحضاري، فالحركة الأدبية غير مستثناة من هذا الفكر المقولب والموجه والذي علمنا الشعر، فصار الشعر خاضعا لسيطرة الأدب الأوروبي، و أصبح الحضور الشعري نادرا في هذا العالم إذن فكيف والحال هذه اتخاذ الشعر نموذجا أو مرادفا للإقامة في عصر صار فيه القول الشعري لصيقا بالخيال واللاواقع وقائما على استبدال الأفعال بالأحلام؟ وهل التملص من الواقع واعتماد الصور الخيالية الجامحة هي المرادف الحقيقي للإقامة الشعرية التي يقصدها هيدغر؟

¹ – Heidegger , Essais et conférences p 225.

ان الشعر لا يعني السكن المادي بالمعنى المعاصر، ولا يعني أيضا أنه الحصول على إقامة (مقر السكن) وهو أيضا بعيد كل البعد عن لعبة خيالية منفصلة عن الواقع. إذن من يمكن من برجه العاجي أن يدعي أنه لا يمكن إيجاد نقاط تقاطع وتصالح بين الشعر والإقامة؟¹ فالشعر هو مرادف للإقامة كبناء (Bâtir (Bauen) ولكن كيف الوصول إلى هذه الإقامة؟ أو ماهي إمكانية الإقامة الشعرية؟ L'Habitation Poétique وما هو المدخل لهذه الإقامة؟ وهل على الإنسان السعي إليها أم هي التي تسعى إليه؟ وبأية وسيلة؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات يقول هيدغر موضحا أنه على الإنسان أن يحصل على الإقامة في مكانها وزمانها المحدد، والحصول عليها لا إمكانية له إلا في الكلمة، أي حينما يوجه الإنسان اهتمامه إلى الوجود الحقيقي للغة وكلما بحث عن هذا الأخير كلما تضاعفت فرص الإقامة. ولكن في خضم هذه الفوضى العلمية التي يعيشها الإنسان وهذه التكنولوجيا المتسارعة تتحرف الكلمة عن صورها الأصلية وتتحول إلى مقاطع تثبت على الأثير بمختلف أشكاله، إنها زوبعة قد تحمل الكثير من الكلمات لكن معانيها تبقى مبعثرة لا تشفي غليل الإنسان ولا تؤسس لوجوده الحقيقي، ولهذا يطلق هولدرلين بيته الشهير:

"الإنسان يسكنه شاعر"¹.

كل ذلك يجعل الإنسان يتصرف وكأنه الخالق وسيد اللغة بلا منازع وواضع جوهرها ومنفذ تفاصيلها، في حين أن اللغة هي السيدة، فهي سكنه الذي يتوجب عليه اللجوء والإقامة فيه. فالخطر يأتي إذن من انقلاب الأدوار وضياع الروابط² وانفلاتها فينتج عن هذا ضياع جوهر اللغة فتصبح مجرد وسيلة اتصال وتجاوز لا غير.

¹ -Ibid.،P 227.

² -Ibid.،P 228.

المبحث الأول : البعد الوجودي للغة الايرايغنييس.

يعتبر هيدغر أن تجاوز الميتافيزيقا الغربية، هو تجاوز لتلك النزعة العلمية التي حصرت مجال اللغة في دوامة الثيولوجيا في القرون الوسطى وحجبت الوجود بلغة تقنية في غاية البعد عن جوهر الوجود هي الحقبة الحديثة والمعاصرة.

هذا التعثر الوجودي وهذا الانسحاب التام لمسألة الوجود، ما كان ليكون لو أن الإنسان ابتعد عن التأويل الميتافيزيقي لماهية اللغة، وحاول بعث لغة أصيلة لا يتكلم فيها الإنسان سوى كمستجيب، و تجعله يستحضر كل الصور المرئية بمختلف أشكالها و ألوانها وتكون لغة كاشفة أو لغة " الإليثيا " و شرط لإعادة نسج علاقة جديدة بالأرض و العالم.

وإذا كان هيدغر قد حاول تقريب الفكرة باستعمال كلمة الإليثيا، فإنه واصل فكرته بعرضها بثوب جديد باستعمال كلمة جديدة في القاموس الألماني إنها كلمة الإيرايغنييس Ereignis. فما معنى هذا المصطلح ؟

وما مقام هذا المفهوم في مشروع هيدغر الوجود ؟

إن ما كان متوفر من مصطلحات ألمانية لم يكن ليستجيب لهذه الرجة الوجودية الهيدغيرية، فعلى سبيل المثال لفظ اللوغوس في لغة الإغريق القديمة حصر الأفكار وأخذ عدة معاني ودلالات في مختلف الأنساق الفلسفية، ففقد معناه أحيانا وأفرغ من دلالاته أحيانا أخرى، ونفس الإشكال لزم كلمة TAO الهندية، التي تعني الطريق في كثير من الأحيان. ولذا كان لزاما على هيدغر و هو يمثل فكرا جرمانيا متقيدا أن يجعل من مصطلحات اللغة الألمانية المفتاح الذي قد يفهم به الإنسان الوجود الحقيقي، فنحت كلمة الإيرايغنييس، وهي مأخوذة من فعل إيرايغنن الذي يعني فعل الإبصار والمعاناة، فمن هذه الكلمة حاول هيدغر إسقاط مفهوم المعاتبة والإبصار، وهذا ما يؤدي حتما إلى الانفتاح واتضح الرؤيا في عالم

غزته التقنية بكل مظاهرها، فلا يحدث انبثاق وظهور إلا باللغة وفي اللغة لذلك وجب التفكير في الإيرايغينيس كظهور للوجود مؤسس على اللغة وعبرها.

فالحاضر التقني بكل تجسيدات المعوقة، وبكل مظاهره الحاجبة للوجود، جعل الإنسان لا يحسن استخدام حواسه الحسية منها والباطنية فلا الرؤية صارت ترى ولا السمع ارتبط بالإنصات وانقطاع هذه الروابط الأساسية هو ما أدى حتما إلى هذا التغييب الوجودي.

إن كيف يكون الإبصار والإنصات شرط السكن في الإيرايغينيس؟

يعتبر هيدغر اللغة بمثابة النقطة التي تلتقي فيها جميع الاتجاهات وتنقرع منها جل المسالك، أنها نقطة الكشف والإظهار ومن شروط هذا الانكشاف والظهور هو التسليح بخاصية الإنصات .

أ- الإنصات إلى الوجود:

كثيرة هي الكائنات المزودة بجهاز السمع، بل جلها يفوق الإنسان دقة وقوة، إلا أن الإنصات هو سمة إنسانية بدرجة أولى، سمة لا تتعلق بتلقي الذبذبات والأصوات الفيزيائية وتحليل جزئياتها، انه إنصات ذو بعد وجودي، انه محقق للماهية وكاشف لها.

يقول هيدغر "أن تسمع أو تبصر فأنت تحقق الشيء نفسه"¹.

لغة الإيرايغينيس هي لب الاستماع، و هي لغة حافظة وجامعة لكل تفاصيل الأمم وتاريخ الشعوب، وتضم كل النشاطات خصوصا الفنون، فيتجسد ذلك في النمط المعيشي وينعكس على المظاهر الحضارية للشعوب. فالتراث الإنساني بكل ما يمثله من أشكال فنية بدأ بالخط والرسم وانتهى بالنحت والعمارة مرورا بالألوان والأحجام، كلها لغة إظهارية كاشفة لا يشترط فيها نمطا غرافيكيا معيناً، إنها لغة تفهمها جميع الشعوب، وتتغلغل في الوجدان الإنساني، وما أكثر أمثلها: العمارة، الوشم، الرسم... الخ.

¹ - Heidegger, Essais et conférences, op, cit, p 263.

إنها لغة تتجاوز البعد الفيزيقي وتتخطى حدود الزمان والمكان لتظهر كمحررة لماهية الإنسان وكاشفة لوجوده، لأنه أحسن الاستماع إلى صداها.

والنطق ليس هو شرط وجود اللغة، فالنطق وان وجد لا يتعدى كونه مجموعة من ذبذبات صوتية وموجات تأخذ منحى وتخضع لقوالب النحو وقوانين المنطق، فمن الضروري استقامة اللسان الناطق لكي يستوفي سلامة النطق وسلاسة المعنى، بينما الإيماء يتعدى ذلك إلى ابعاد نقطة ممكنة، انه انتقال من المسموع إلى الإيماء.

فإمكانية إيجاد الطريق تبقى قائمة، طريق يفتح على مفهوم الإظهار، ويختلف عن الدلالة الكلاسيكية التي تنقلها الأصوات الفيزيائية، انه يحمل أبعادا جديدة ويتسع لكثير من الدلالة عجزت اللغة المسموعة عن نقلها. هذا الإظهار هو ما يجذب انتباه الإنسان ويوقظ الحواس لا بطريقة فيزيائية بيولوجية، بل بزوال تلك الغشاوة التي حالت دون انقشاع الضباب وظهور الوجود. فأبسط المثيرات الخارجية تظهر هذا التيه عن إدراك الوجود، أننا نتلقف الإشارات لكننا لا نحسن فك شفرتها ولا وضعها في مكانها اللائق بها وهذا ينطبق على كل حواسنا، باختلاف درجاتها وشدة استعمالها. ولهذا يقول هيدغر: "نحن لا نسمع لأننا نمتلك الأذن، بل بالعكس نحن نمتلك الأذنين لأننا نسمع"¹.

فكل حواسنا وما تنقله من مؤشرات خارجية ماهي في حقيقة الأمر لا ومضات وانفتاح تبعته اللغة إلينا، فما وجد الإدراك الحسي إلا لينقل إشارات اللغة، وما وجد إلا ليسمح بمرور هذا النور الذي مصدره اللغة، التي تبقى الينبوع المنفتح الذي يزودنا بالمعاني ويفتح مجال الإقامة لأن الإنسان هو كائن الانفتاح على الوجود. فالاستماع هو الإقامة خارج الأذن وكذا بالنسبة لبقية الحواس فنحن لا نستعمل اللغة ولكن هي من يستعملنا.

¹ -Ibid. p 259

فاللغة ليست ساكنة ولا جامدة، بل أنها تملك قوة تحريضية تدفعنا إلى التفتيش عن الماهية التي ضاعت في زمن النقدية وضاعت في ثنايا الحساب الرياضي. لهذا يتوجه الإنسان دائما صوب الوجود ليحقق الانفتاح المحقق لماهيته.

فإذا أردنا أن نفهم حقيقة اللغة لا بد من ربطها بمسألة الإظهار، إظهار الوجود، لأن أي تفسير لمحدود لمدلول اللغة ولظواهرها الفيزيولوجي يضيق الانفتاح على حقيقة الوجود، فالكلام و التكلم والاستماع والكتابة ما هي إلا مظاهر تم تقليص و تحديد دوره، بينما يمكننا توسيع فهمنا للغة .

يقول هيدغر " أن تسمع أو تبصر فأنت تحقق الشيء نفسه. "

هذه العبارة هي مفتاح ما يذهب إليه هيدغر بخصوص تحقيق الماهية الحقيقية للإنسان التي لا سبيل للوصول إليها سوى بالاستماع الذي يجعل الوجود ينكشف تدريجيا، وهو الاستماع إلى لغة الإيراينغينيس التي تحقق شرط الانفتاح على الوجود .

وبما أن لغة النقدية الحديثة قد أوصدت كل الأبواب وحجبت الوجود عن الانكشاف وحالت دون إدراك الإنسان لماهيته الحقيقية التي لا يمكن أن تتحقق خارج اللغة فإنه استلزم على الإنسان أن يعيش على الاستماع إلى اللغة والرجوع إلى منبع الكلام الذي يتمثل في الإيراينغينيس لأنه الانكشاف الأصلي للحقيقة، ولا شيء يعلو عليه، وما الشعراء و المفكرون إلا ناقلين لما تمليه عليهم اللغة، ولا يظهرون من الحقيقة إلا ما تسمح به هذه اللغة، إنها المنبع و المنهل، وهي من يحدد زمان و مكان الانفتاح على الوجود، ووسيلتها في ذلك شعراء المقدس و الذين يحملون هذا الهم المتمثل في إنارة الوجود.

إن القدرة على الإظهار تحده اللغة، ولا يتم ذلك إلا بحسن الاستماع لنداء الوجود وهو استماع لا يحقق هدفه إن لم يتأسس على الاستجابة الملائمة، الكل يملك القدرة على الاستماع والتقاط الذبذبات الصوتية لكن الاستماع الفعلي هو تجاوز للإدراك الحسي، إنه محاولة لفهم كلام اللغة، وهو أيضا الإقامة في تلك الحقيقة، وشرط الاستماع إلى الوجود هو

أن يكون الإنسان قادرا ويملك الاستعداد لتبني ثقل اللغة والاستماع إليها أولا والإقامة فيها ثانيا .

الإقامة بعد التيه :

لطالما اعتبر هولدرلين الإنسان نهرا متدفقا لا يتوقف على الجريان، حركته دائمة وتقله مستمر، وهذا اللااستقرار يشوبه كثير من القلق و الهم وبحث دائم على الراحة و لإقامة، لأن في الترحاب شتات وتفتيت للوجود وفي الإقامة تحقيق للماهية وبشارة لبداية البناء. فلا بناء بلا استقرار، وتعني كلمة إقامة Halt في اللغة الالمانية هو التوقف، أي البحث عن فضاء أكثر أمانا و استقرارا، تتوفر فيه الدعم و الحماية يقول هولدرلين " ينبغي للإنسان أن يرحل عندما يحين الأجل، متى تكلمت الروح بلسانه".¹

وفي هذا إشارة إلى أنه يجب ترك المجال للنهر المتدفق أو ينبوع الكلام الأصيل لكي يتحرر وينكشف، ولا يكون ذلك إلا بالإقامة في أحضان الحقيقة التي لا يدركها إلا من يحسن الاستماع أولا و الإقامة ثانية، وهذا ينبوع لا يمد تدفقه إلا لمن توفرت لديه شرط فهم إشارات الوجود وحسن الاستماع لها، ومن ثم الاستقرار و الإقامة.

فالإنسان هو الكاشف بامتياز لحقيقة ما يقيم فيه، ولا نعني بالحقيقة هنا تلك الحقيقة الميتافيزيقية التي بحث عنها قدامى الإغريق وإنما حقيقة من طراز آخر تقوم على الإيمان، إنها لغة الإيراغينيس التي تجعل من اللغة خاصية لصيقة بالوجود، إنها تمنح الإنسان الإظهار الذي سيمكنه من الرؤية بوضوح وبالتالي إمكانية الاستقرار الذي يختلف عن الإقامة المادية المعتادة والتي ألفها الإنسان.

1- هولدرلين انشاد المنادى. ص65

وشرط الإقامة في اللغة يلزم توفر البناء الذي لا يصلح للسكن،" فما أكثر البناءات التي يستعملها الإنسان إلا أنها غير صالحة للسكن، كالمطار والطريق السريع، فنستعملها ولكننا لا نسكنها".¹ إن لعملية البناء دلالتها عند هيدغر فهي أول خطوة في السكن الحقيقي إنها الإشارة الأولى التي تحدد اتجاه الوجود الذي يتجاوز بعدها المظهر المادي، إلى هدف أسمى وأكثر عمقا. إنها دعوة إلى مغادرة أرض الميتافيزيقا لنقيم خارجها في كنف لغة الاريجنيس، لغة البدء الأول، ولغة الإظهار والأصل و التي تختلف عن الكلام الملفوظ أنها تعتمد على الإيمان.

وفي اللغة الألمانية فعل البناء Bauen ينحو أيضا منحى الإسكان، ومن دلالة مادية يرتقي هيدغر بهذا الفعل إلى دلالة أكثر عمقا تتعلق ببناء الماهية الإنسانية، وتحقيق وجود الكائن. والبناء هنا يفضي مباشرة إلى الإسكان، و هو بمثابة استراحة المحارب أو وقفة يلتقط فيها الإنسان أنفاسه ليعود إلى الصراع من جديد.

وإذا كان البناء والسكن قد حرر الإنسان من قيود اللغة الميتافيزيقية وضمن له استقرار على مستوى وجوده وماهيته، فإن الكائن بهذه الصورة يكون قد أخذ موقعه الأصيل والمناسب ليرتقي بوجوده إلى صورة أوضح وأكثر انفتاحا، انه الآن في حاجة إلى ملكة تثبت استقراره وتعزز وجوده الحقيقي، انه التفكير الذي يعتبره هيدغر شرط لا يتحقق إلا بالإقامة في كلام اللغة.

¹ Heidegger, Essais et conférences p 190 - 191

يقول هيدغر "أن الاستجابة هي أن تكون رهن الاستماع"¹. و الاستماع هنا هو امثل طريق لرصد الصمت وهو. بدوره لغة لأنه يسمح بالتقاط مؤشرات الوجود. ولا يعني هذا إعادة النظر في الكلام وما يحمله من دلالات، ولا يعني أيضا تصحيح أو تغيير، ولكن هو استعادة القدرة على البناء والسكن في حضن اللغة، التي اعتبرتها الميتافيزيقا الغربية أداة في حين أنها مسكن الوجود.

إن التكلم الإنساني لا يكون ممكنا إلا بالاستماع إلى كلام اللغة. وهذا التكلم هو الكاشف لإقامة الوجود في اللغة، وقدرة الكشف عند الإنسان مرتبطة بفكرة هذا الأخير الذي كثيرا ما ارتبط بالميتولوجيا واللاهوت، وكثيرا ما حصر نفسه في قوالب المنطق وقوالب العلم، ورغم تنوع هذه المجالات إلا أن هناك نظم أخرى أصيلة وأصلية، و هذا ما يسمى بالكلام قبل الكلام انه كلام اللوجوس LOGOS انه القول الشعري الذي يفرض نفسه على الفكر.

¹ Heidegger, Acheminement vers la parole, op, cit, p 36

خاتمة

الخاتمة:

ما من أحد اعتبر الخطاب الإنساني في ثرثرة مضجرة كما فعل هيدغر، وما من أحد تمكن من رصد انغلاق وزيف الوجود كما أشار إليه هيدغر. إن هذه الثرثرة طوقت الإنسان و أفضت به إلى فهم مبتور لوجوده ومحيطه.

فلقد أعرض الإنسان مخيرا أو مكرها عن وجوده الأصلي، وهذا ما أدى به إلى الغموض في فهم الوجود والكائنات ودفع به إلى القدر الميتافيزيقي الذي بدا ته الأفلاطونية بتحويلها الحقيقة الأفلاطونية إلى تمثّل ذاتي.

وان اعتبر هيدغر "الميتافيزيقا حقبة تاريخية للكائن، فهي في جوهرها عدمية، وفي هذا إشارة إلى الإرث الميتافيزيقي الذي غيب الوجود وحجب الرؤية الحقيقية للكائن. هذا الوجود الذي لا يمكن أن ينكشف أو يضاء إلا بالقول الشعري هذا الوجود الذي وجد فيه هيدغر مبحثا أصيلا يربط بين الشعر والوجود ليشكل ثورة رؤيوية تعددية تدرك الوجود بوصفه انفتاحا للموجود، فيشير هيدغر إلى أن التأمل الأصيل هو الذي يصون حقيقة الإنسان وذلك من خلال مساءلة قوية وخلاقة، وهذه الأخيرة تجعله يقتسم كيانه بين الوجود والموجود، حيث يكون الوجود ضائعا في عمق الموجود، وهذا المكان هو الوجود في العالم باعتباره مجالا لانفتاح الوجود ولانفتاحه ولانسجامه في آن واحد.

وأكثر من لبي هذا النداء هو هولدرلين الذي لخص كل المعاناة والقلق الذي ينتاب الكائن، فهو شاعر الشعراء بامتياز، كما يقول ذلك هيدغر الذي اعتبر أن المفكرين والشعراء هم أولئك الذين ينصتون إلى نداء الوجود ويستمعون إلى صوته غير المسموع، كما ذهب إلى أن لاستجابة المفكر والشاعر خاصية التفكير الأصلي في الوجود.

ولكن الشاعر هو الذي يسمى "المقدس" لان الكلمة الشعرية تضيء الوجود. وسر ذلك أن الشعراء الحقيقيون هم من يرصدون الاختلاف بين الإنسان والآلهة كما فعل هولدرلين، فلقد مكن الشعر من مجاوزة الميتافيزيقا، ومكن الوجود من التجلي.

إن الشعر معرفة تبحث داخل الكهف لتثير التساؤل الجوهري في غوره والكهف في النهاية يكتسب دلالة رمزية، فهو في نهاية التأويل مسكن الكائن الحقيقي في العالم كما يرى ذلك هيدغر.

وحالة الكشف هذه تعبر عن إرادة تصبو نحو رؤيا العالم من أجل إدراك المستور وتنوير العتمة وإزالة الحجاب المعيق للرؤية والشعر بهذا المستوى هو "معرفة الواقع السري للعالم" كما علق عليه الشاعر الألماني (Achimon Armin)، (1781-1831).

فلا مناص من أن يجد هيدغر في الشعر اختراق للعالم المرئي وللمعرفة الجاهزة، إنه استشراف يلتقي بالتصوف من حيث أن هدفهما هو كشف الحجاب، أي العائق الذي يحول دون رؤية أبعاد الكون الماورئية، فالشعر هنا هو فهم وإدراك البنى التأويلية للعالم، هذه البنى المنتجة للمعاني اللامتناهية التي يزخر بها الكون.

إن الشاعر يتعدى كونه ذلك الناظم للقول فحسب، وليس هو ذلك الذي يحاول مجاورة المعلوم، وإنما الشاعر هو الذي يتجه بقصد المغامرة نحو دروب التخيل التي تترصد حركة المجهول، فلغز الكينونة لا ينفذ إليه إلا الشاعر، لأن الكينونة تختفي دوماً أكثر مما تظهر.

إن الحقيقة من منظور هيدغر هي انفتاح ونداء من أجل الاستماع والاستجابة، لذلك كان الشعر والذوق مرتبطين بتجربة واحدة وهي سؤال الحقيقة.

إن هيدغر بتقويضه للمعنى الأفلاطوني للوجود وبلجونه للشعر عكف على تهديم أرماده من قوالب فكرية طوقت الوجود وحجبتة، فأشار بهذا إلى ذلك الاستشراف الذي خطه هولدرلين في أشعاره، واستبق فيه الزمن خصوصاً في قصيدة "خبز وخمر"، فاختص بذلك بمهمة شاقة لا يقدم عليها المنشدون المقدسون في ظل زمن بات لا يؤمن إلا بالمفاهيم الحساسة.

هو نداء يستدعي للوقوف أمام راهن كبلته الميتافيزيقا وعقدته الرياضيات واتصف بالتقنية المادية، وضاع في غياهب الثورة المعلوماتية، وما أشار إليه هيدغر من ضياع ونسيان هو سمة عصرنا الذي يتجسد فيه الاغتراب الانطولوجي.

وبناء على ما سبق، فإننا نخلص إلى بعض النقاط التي تلقي بعض الضوء على المفهوم الأنطولوجي للغة عند هيدغر.

- أولاً: يتلخص الوجود عند هيدغر في "الكلمة" الكلمة التي لا تقوم إلا على التفكير النابع من الشعر الأصلي، ولا يستقيم الفكر إلا إذ لبي نداء الوجود.
- ثانياً: لا يتحقق وجود إنسان إلا بالقدر الذي ينصت فيه إلى نداء اللغة، لأن مسكن الإنسان في اللغة وعليه الإنصات إليها، والاستجابة لها.
- ثالثاً: اللغة هي الضامنة للعالم والتاريخ وهي الحافظة للوجود.
- رابعاً: لا يكتمل وجودنا كما يقول هيدغر دون الإنصات الحقيقي للشاعر والمفكر، لأنهما مصدر إثارة الوجود لوجود حقيقي الذي حجبه الميتافيزيقا التي كرسه الخطاب الرياضي والمنطقي

إن هذه الاستنتاجات ربطت مصير المفكر والشاعر و مكنت هيدغر من انتزاع الأولوية الأنطولوجية للإله، فالشاعر هو الوحيد الذي يتصدى للمد الميتافيزيقي، لأنه من يحل مكان الآلهة المنسحبة.

إن التجربة الهولدرلينية التي ألهمت هيدغر هي نتاج التيار الرومانسي، والمثالية الألمانية لقد كان استدعاء هولدرلين من طرف هيدغر هو استدعاء لقدرة أسلوبه الشعري على تطويع اللغة لتحفيز الوجود على الانفتاح.

ومتى أخفقت الكلمة امتنع الوجود، والكلمة مرتبطة أيضاً بالصمت، لأن هذا الصمت لغة تعبر عن أفكارنا غير المنطوقة، وهذا تعبير عن الوجود لذلك وجب إزالة العتمة عن الوجود.

ولابد من الإشارة إلى أن هيدغر استعان بالفن من أجل توضيح بعض التصورات، لأن أشكال التعبير الفلسفي في نظره لم تعد تقي بالغرض، لذلك اعتبر شيلينج العمل الفني بمثابة أورغانون الفلسفة.

إذن تبقى لغة الشعر هي تجلى الغريب في المألوف، ولقد جسدها هولدرلين بكل عمقها و أوسعها، إذ استطاع أن يصنع من ألفاظ بسيطة معالم الوجود فالسمااء في شعره تعنى الإله، والنهر يعنى الاستمرار، والينبوع هو العودة إلى البدء الأصيل، وأرض الميلاد أو المسقط الرأس هي من يحقق معالم هذا الوجود، فقصائده تجعلك ترى ما لا يرى، وعلى هذا النحو أعتبر هيدغر اللغة الشعرية لغة مرنة مفتوحة وتتجاوز اللغة الفلسفية وتحفز الوجود على الانفتاح، وتقود الإنسان شعريا في هذه الأرض نحو استيعاب مقاصد الإقامة و متعة العبور من الشعر إلى الفلسفة.

قائمة المصادر والمراجع

مؤلفات هيدير

- Acheminent vers la parole, trad J .Beaufret .w. Brokmeir et F.fedier, Gallimard Paris 1976
- Approche de Hölderlin (plusieurs traductions) Gallimard Paris 1962.
- Chemins qui ne mènent nulle part, tard w Brokmeir Gallimard Paris 1962.
- Essais et conférences trad.E-Martineau Gallimard Paris 1987.
- Etre et temps trad. E-Martineau édition numérique hors commerce (<http://www.rialland.org/> Heidegger/) 2005.
- Introduction à la métaphysique trad. Gilbert Khan collection TEL Gallimard Paris 1967.
- Le principe de la raison trad. par A-Préau Gallimard Paris 1962.
- Les problèmes fondamentaux de la phénoménologie trad J F Courtine Gallimard Paris 1985.
- Nietzsche 1 et 2 trad P Klossowski, Gallimard Paris 1971.
- Qu'appelle –t-on penser ? Trad A-Becker et G Granel, PUF, Paris 1959.
- Qu'est une chose ? Trad J Reboul et J Taminiaux Gallimard Paris 1971.
- Questions 1(Plusieurs traducteurs) Gallimard Paris 19171.
- Questions 2. (Plusieurs traducteurs) Gallimard Paris 19171.
- Questions 3. (Plusieurs traducteurs) Gallimard Paris 19171
- Questions 4. (Plusieurs traducteurs) Gallimard Paris 19171.
- Questions 1 et 2 TEL Gallimard Paris 1996.
- Questions 3 et 4 TEL Gallimard Paris 1996.

قائمة المصادر والمراجع:

1- مصادر هيدغر المترجمة للعربية:

- التصور التقليدي للحقيقة، ضمن دفاتر.
- إنشاد المنادى، ترجمة بسام حجاوى ، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1984.
- ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هولدرلين وماهية الشعر ترجمة فؤاد كامل، محمود رجب الطبعة الثانية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974.
- ما الميتافيزيقا، ترجمة فاطمة الجيوشي، دمشق، وزارة الثقافة، 1998.
- ، ماذا يعني التفكير، ترجمة نادية بونفقة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2008.
- مبدأ العلة، ترجمة نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1999.
- ، نداء الحقيقة، ترجمة عبد الغفار بكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر.

2- المراجع باللغة العربية:

- أبو العيد دودو، هيدغر أصل العمل الفني، مقدمة أمير، منشورات الجمل ألمانيا، 2003.
- حسن حلمي، فريد بدر، هولدرلين مختارات شعرية، تقديم محمد بنيس، دار توبقال للنشر، 2009.
- د. الفريوي علي الحبيب، مارتن هيدغر الفن والحقيقة، دار الفارابي، بيروت، 2008.
- د. الفريوي علي الحبيب، مارتن هيدغر نقد العقل الميتافيزيقي، دار الفارابي، بيروت، 2008.

- د. عبد الغفار مكاوي، مارتن هيدغر نداء الحقيقة، دار الثقافة والنشر، مصر، 1997.
- د. مهيبيل عمر، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2005.
- زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، الجزء الأول، مصر، 1968.
- طواع محمد، شعرية هيدغر مقارنة أنطولوجية لمفهوم الشعر، منشورات عالم التربية، 2010.
- عبد الرحمن بدوي، الزمان الوجودي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، 1955.
- عبد السلام جعفر، أنطولوجيا اللغة عند هيدغر، دراسات فلسفية في قصيدة شستيفان الكلمة، دار الوفاء للنشر والطباعة.
- عبد الغفار مكاوي، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، ج13، جامعة الكويت، 1992.
- عثمان أمين، مارتن هيدغر في الفلسفة والشعر الدار القومية للطباعة والنشر.
- عثمان أمين، مارتن هيدغر في الفلسفة والشعر الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1963.
- مارجوري جرين، هيدغر، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973.
- مشير باسيل عون، الخسارة الفلسفية، دار المشرق، بيروت، 2004.

3- قائمة المراجع باللغة الفرنسية:

- Beda Aleman, Hölderlin et Heidegger Recherche de la relation entre poésie et pensée, trad. F. Fedier, presses universitaires de Frances, Paris, 1^{er} 2dition, 1959.
- Alain Boutot, Heidegger série que Sais-je, édition DELTA, 3eme, Paris, 1989.
- Dastur François, Heidegger L Ra question de LOGOS librairie Philosophique, Paris, 2007.
- Françoise Dastur, HÖlderlin, Le retournement natal, encre marine, 1927.
- G.Deleuze, de la philosophie, PUF, 4eme Edi, Paris, 1976.
- Scherer et Kelkel, Heidegger on l'expérience de la Pensée, ED, Seghers, 1973.
- Shiquin she Hölderlin critique de la raison et habitation Poétique de l'homme, thèse de doctorat, délivrée par l'université de Toulouse mai 2012.
- Valysse, jean marie, Le vocabulaire de Heidegger, l'éclipse, 2000.
- Jean Wahl.. La Pensée de Heidegger et la poésie de Hölderlin centre de documentation universitaire, « les cours de Sorbonne, Paris, 1952.

4- المجلات والدوريات باللغة العربية:

- مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القوي، بيروت، العدد الثاني عشر، خريف 1990.
- مجلة أيس، هيدغر، دار أخبار للصحافة العدد 03 أكتوبر، مار 2009.
- مجلة دراسات عربية العدد 1/2، السنة 2، نوفمبر 1998.
- مجلة فكر وتعد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، العدد الثامن، السنة الأولى، أبريل 1988

5- المجلات والدوريات بالفرنسية:

- Critique n° 27, 1971.
- Esprit, Novembre 1970.
- Exercices de l'esprit, I, Paris.
- Magazine littéraire, N° 235, Novembre 1986.
- Revue de Métaphysique et de morale, Janvier, Mars 1967.

المصطلحات

Alteriete	الأخروية
Apriorité	قبيلية
Apriori	قبلي
Aliénation	اغتراب
Ambigüité	غموض
Apparaitre	ظهر
Aspect	مظهر
Apiriete	انفتاح
Actuel	راهنية
Abstrait	مجرد
Bâtir	بناء
Concept	مفهوم/ تصور
Conscience	وعي
Concept Absolue	مفهوم مطلق
Concret	عيني
Chemin	طريق
Certitude	يقين
Communication	تواصل
Communicationnel	تواصلية
Chose	شيء
Chosification	شيئية
Dasein	موجد
Dévoilement	انكشاف
Dissimulation	إخفاء
Destination	قدر

Destruction	تقويض
Dépassement	مجازة
Dimension	بعد
Dogmatisme	وثوقية
Demeure	سكن
Devenir	صيرورة
Différence	اختلاف
Durée	ديمومة
Errance	تيه
Etre	وجود
Etre en soi	الوجود في ذاته
Etre pour soi	الوجود لذاته
Ereignis	إظهار
Expérience	تجربة
Essence	ماهية
Epoque	عصر
Existence	وجود
Existentialisme	وجودية
Etant	موجود
Etonnement	دهشة
Grand commencement	البدء الأعظم
Généalogie	علم الأنساب
Genèse	تقويم
Grammatologie	علم الكتابة
Germinale	شذري
Genre	نوع
Habiter	سكن

Historicité	تاريخانية
Herméneutique	تأويلية
Intentionnalité	القصدية
Intentionnel	قصدي
Identité	هوية
Indice	مؤشر
Invisible	لا مرئي
Inachèvement	لا اكتمال
Idée	فكرة
Pense	فكر
Indifférence	لا مبالاة
Interrogation métaphysique	استفهام ميتافيزيقي
Incarnation	تجسد
Interpellation	استفسار
Jugement	حكم
Légitime	مشروعية
Limitation	تحديد
Labyrinthe	متاهة
Lacune	ثغرة
Logos	لوغوس
Lichtung	فجوة
Liberté	حرية
Métaphore	علم البلاغة
Mythe	أسطورة
Mythologie	ميثولوجية
Méthode	طريقة
Mystique	صوفي

Monde	عالم
Nihilisme	عدمية
Néant	عدم
Obscurcissement	غموض
Originaire	أصلي
Ouverture	انفتاح
Origine	أصل
Anthologie	أنطولوجيا
Obnubilation	الإحتجاب
Présence	حضور
Phénoménologie	الظاهراتية
Pense de l'entre	تفكير الوجود
Proximité	قربى
Patrimoine	تراث
Principe	مبدأ
Principe de raison	مبدأ العلة
Principe d'identité	مبدأ الهوية
Possible	ممکن
Pratique	ممارسة
Projet	مشروع
Question	سؤال
Retrait	اختفاء
Raison	عقل/ علة
Renversement	قلب
Substance	جوهر
Subjectif	ذاتي
Symbole	رمز

Surmontement	مجاززة
Sagesse	حكمة
Système	نظام/ نسق
Structure	بنية
Transcendance	تعالى
Transcendantal	متعالى
Tragique	مأساوى
Tension	نزوع
Temporalité	زمانية
Temporel	زمانى
Théologie	علم نشوء الآلهة
Voilement	تحجب
Vision	رؤية
Vécu	معيش
Visible	مرئى
Véritable	حقيقى
Valeur	قيمة

فهرس المحتويات

5..... مقدمة

الفصل الأول: نقد العقل اللغوي.

9..... المبحث الأول : منابع الفكر الهيد غرى

12..... أ- التراث اليوناني القديم.....

15..... ب- التراث الغربي و المعاصر.....

18..... المبحث الثاني : الميتافيزيقا و اللغة

30..... المبحث الثالث : التقويض الفينومينولوجى للتراث الميتافيزيقى

37..... المبحث الرابع : أصالة التأويل الهيدغري

الفصل الثاني: البعد الوجودي للشعر.

44..... المبحث الأول: خصائص اللغة الشعرية.....

47..... المبحث الثاني : مقارنة هيدغر للشعر الهولدرليني

58..... المبحث الثالث: الزمانية و ماهية الشعر

65..... المبحث الرابع: علاقة الجوار بين الفكر و الشعر.....

81..... المبحث الخامس: من لغة الميتافيزيقا إلى لغة الشعر.....

89..... أ- هولدرلين و جوهر الشعر

91..... ب- الشعر و المقدس

الفصل الثالث: الشعر في مقابل الميتافيزيقا.

96..... المبحث الأول : مرحلة الراين بوصفها مرحلة انتقالية

100..... المبحث الثاني: الشعر و العودة إلى مسقط الرأس.....

113.....	المبحث الثالث : المنعطف الهولدرليني و فهم الزمانية
117.....	المبحث الرابع: الشعر و الإقامة في اللغة
120.....	المبحث الخامس : البعد الوجودي و لغة الايراينغيس
121.....	أ-الإنصات إلي الوجود
123.....	ب-الإقامة بعد التيه
129.....	خاتمة
133.....	قائمة المصادر و المراجع